البحوث المترجمة

رسائل جون كرين عن رحلة والده تشارلز كرين إلى العراق والخليج العربي في عام ١٩٢٩م (١٣٤٧هـ)

ترجمة: د. محمد بن علي العبداللطيف

ترجمة لتقرير كتب باللغة الإنجليزية يحوي وقائع رحلة ويعود تاريخه إلى الأول من شعبان عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٩/١/١٢م)، كتبه جون أو. كرين الذي رافق والده تشارلز كرين في رحلة إلى العراق وبعض دول الخليج العربي على ضفتيه الشرقية والغربية حتى وصولهم إلى مسقط، ويعد تشارلز كرين من أوائل الشخصيات الدبلوماسية الأمريكية التي اهتمت بتاريخ المنطقة عمومًا والمملكة العربية السعودية خصوصًا، والتي أسهمت في ترسيخ أواصر العلاقة بين المملكة والولايات المتحدة الأمريكية، أرسل هذا التقرير إلى والتر إس روجرز أحد أبرز رسامي القصص الكرتونية في تلك المدة، وقد وصف تلك الزيارة بأسلوب قصصي تفصيلي، تضمن ذلك ذكر العراقيل التي واجهتهم.

John Crane's Papers about his father Charles Crane's Journey to Iraq and the Persian Gulf in 1929 AD (1347 AH)

Translated by: Dr. Muhammed bin Ali Al Abdullatif

Translation:

This is a translation of an English book report containing the incidents of a journey dating back to Shaban 1, 1347 AH (1/12/1929 AD), written by John O. Crane. John O. Crane has accompanied his father, Charles Crane, on a journey to Iraq and some Arab states on both eastern and western banks of the Gulf until their arrival in Muscat. Charles Crane is one of the first American diplomats who are interested generally in the history of the region and particularly that of the Kingdom of Saudi Arabia. He has contributed to consolidating the bonds of the relationship between KSA and USA. This report was sent to Walter S. Rogers, one of the most prominent cartoonists of that period. He has described that journey in a detailed narrative style, mentioning the obstacles they have faced.

(قدم للنشر في ١٤٤١/١٠/١٥هـ، وقبل للنشر في ١٤٤٢/٢/١٨هـ)

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

Department History - College of Arts - King Saud University

mohd.1500@gmail.com

مقدمة المترجم:

تعد زيارة السيد تشارلز كرين (Charles Crane) أو رحلته إلى العراق وبعض دول الخليج العربي التي رافقه فيها ابنه جون (John)، من أكثر الزيارات إثارة، إذ قدّمت لنا معلومات قيّمة عن تلك الأرجاء؛ لأنه تجول في هذه المنطقة وأعطى تفاصيل دقيقة خلال الرحلة. كما تعرّضت الرحلة لبعض الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية المهمة التي شهدتها هذه المنطقة في تلك المدة. تحدث السيد جون عن زمن مكوثهم في البصرة ثم زيارتهم لبعض مدن الخليج العربي على ضفتيه الشرقية والغربية حتى وصولهم إلى مسقط.

يعد السيد كرين من أوائل الأمريكيين الذين اهتموا بالمنطقة وتاريخها، ولقاء الحكام العرب ومَد أواصر العلاقات بينه وبينهم. ويعد كرين من رجال الدبلوماسية الأمريكية وكذلك من رجال الأعمال، وكان مهتمًّا بالعلاقات الدبلوماسية مع روسيا وبالدراسات الروسية وأسس مركزًا متخصصًا لذلك. كما كان متفهمًا لقضايا العرب بشكل كبير منذ زيارته الشهيرة إلى سوريا بوصفه عضوًا في لجنة كينج كرين عام ١٩١٩م (١٣٣٥هـ).

ولد تشارلز ريتشارد كرين (Charles R. Crane) في شيكاغو عام ١٨٥٨م (١٢٧٤هـ) وهو الابن الأكبر بين تسعة أبناء. كان والده من كبار أرباب الصناعة في مجال صناعة الأنابيب والتمديدات المنزلية المصنوعة من معدن النحاس، وقد توسعت أعماله كثيرًا حتى أصبح مصنعه في وقت من الأوقات من أكبر مصانع العالم في هذا المجال. ولم تكن أوضاعه

الصحية جيدة في طفولته لذلك لم يذهب إلى المدرسة في صغره إلا في أعوام قليلة، وكان والده يعتمد على تعليمه في المنزل[١].

كان كرين كثير السفر وقد يكون لإصابته بالملاريا ونصح الأطباء له بضرورة الترحال والانتقال من مكان إلى آخر دور كبير في ذلك حتى تتغير البيئة والأجواء بالنسبة له. بدأ رحلاته عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وذلك حينما زار أوروبا ومنها زار تركيا وبلاد الشام - كذلك قام بزيارة لمصر والقدس والأماكن المقدسة للمسيحيين. ومما هو جدير بالإشارة له أن زيارة كرين للدولة العثمانية زامنت الحرب الروسية العثمانية، وقد عبر كرين عن مشاعره الموالية للروس. كانت هذه الزيارة هي الأولى له وهو في عمر العشرين وسوف تتكرر زياراته للمنطقة على مر السنين. وقد زار روسيا أربع مرات ما بين عامي ١٨٨٧م-١٩٣٧م (١٣٠٤هـ-١٣٥٦هـ) وزار منطقتي القوقاز وآسيا الوسطى - اللتين كانتا تحت الاحتلال الروسي - وقد لبث في بخارى مدة من الزمن تخللها شهر رمضان، وكذلك زار سمرقند وقد حضر الدروس العلمية في مدارسهما الضخمة، وزار الأضرحة الكبيرة في هاتين المدينتين. اهتم كرين بالترويج

(1) Saul, Norman E., *The Life and Times of Charles R. Crane, 1858–1939: American Businessman, Philan thropist, and a Founder of Russian Studies in America,* (Lexington Books, New York: 2013), (Kindle Location 462). Kindle Edition.

للتاريخ الروسي والثقافة الروسية إذ قام بالتعاون مع جامعة شيكاغو بدعم برنامج محاضرات عن التاريخ الروسي يلقيها عدد من المتخصصين الروس وكان من بينهم توماس جاريجوي ماساريك (Tomáš Garrigue Masaryk) الفيلسوف التشيكوسلوفاكي المهتم بالدراسات السلافية، والذي سيكون له دور كبير في تأسيس دولة تشيكوسلوفاكيا فيما بعد. من الجدير بالذكر أن كرين كان بروتستانتيًّا متدينًا وناشطًا في المجال التنصيري، وقد يكون لهذا الأمر دور في نشاطه في المنطقة العربية وعلاقته بالزعماء والأعيان العرب خصوصًا المسيحيين منهم(٢).

أسهم كرين إسهامًا كبيرًا في دعم حركات الانفصال في الدولة العثمانية سواء في ألبانيا أو بلغاريا، وقد زار تلك البلدان عدة مرات وعرض مساعداته على أهالي تلك البلاد من أجل الثورة على الحكم العثماني. كذلك، كان كرين من أوائل المرحبين بثورة مارس في روسيا عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) حتى إنه طلب من الحكومة الأمريكية سرعة الاعتراف بها وطلب من الرئيس ويلسون أن يسمح له بالذهاب إلى روسيا داعمًا للثورة.

(2) Sulzbach, Jacob John, Jr., *Charles R. Crane, Woodrow Wilson, and Progressive reform: 1909-1921,* ProQuest Dissertations and Theses; 1994; The Humanities and Social Sciences Collection, P. 14; David Hapgood. *Charles R. Crane: The Man Who Bet on People,* (Xlibris Publishing by the Institute of Current World Affairs Washington D.C, 2000), (Kindle Location 139), Kindle Edition.

زار كرين بلاد الشام عام ١٩١٩م (١٣٣٧هـ) حينما كلفه الرئيس ويلسون هو وهنري كينج لرئاسة لجنة تقصي حقائق للتأكد من قدرة الشعوب على حكم نفسها، وقد قابل في طريقه إليها الشيخ أحمد السنوسي زعيم الحركة الليبية المطالبة بالوقوف والجهاد ضد الاستعمار الإيطالي، واستمرت علاقتهما سنين طويلة. كما زار دمشق بعدها بثلاث سنوات، وقد اتهم في تلك الزيارة بتمويل الثورة السورية. كما زار جدة عام ١٩٢٣م (١٣٤١هـ) وقابل الشريف الحسين الذي عرض عليه مراسلاته مع المندوب البريطاني في القاهرة السير آرثر هنري مكماهون[٣].

زار كرين تركيا بعد ثلاث سنوات من تلك الحادثة، وزار قبر الفكاهي نصير الدين خوجه (الشهير بجحا) وكان مغرمًا بقصصه، وكأن تلك الزيارة بدأت تطلق العنان لأفكاره بزيارة بلاد العرب القديمة. كان كرين في عام ١٩٢٦م (١٣٤٤هـ) زائرًا في القدس وقابل السيد عبدالرحمن الشهبندر وتحدثا عن الملك عبدالعزيز الذي كان قد استضاف الشهبندر خلال فترة لجوئه السياسي عنده. قام الشهبندر بتقديم كرين إلى مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني وكتبا كلاهما إلى الملك عبدالعزيز للتعريف بتشارلز كرين ورغبته في زيارة الملك عبدالعزيز وأخبروه بأنه "صديق العرب". تحمس كرين لتلك

(3) David Hapgood. *Charles R. Crane: The Man Who Bet on People,* (Kindle Location 139), F. W. Brecher. "Charles R. Crane's Crusade for the Arabs, 1919-39." *Middle Eastern Studies*, Vol. 24, no. 1 (1988): 43.

الزيارة وكان قد رتب زيارة لليمن فركب السفينة من مصر وأبحر إلى جدة لمقابلة الملك عبدالعزيز ولكنه حينما وصل إليها علم أن الملك قد سار إلى داخل البلاد. قابل كرين نائب الملك في الحجاز الأمير فيصل بن عبدالعزيز ولبث في ضيافته مدة من الزمن ثم أبحر بعدها من جدة إلى عدن قاصدًا زيارة الإمام يحيى حميد الدين إمام الدولة المتوكلية في صنعاء. وقد تحدث عن جدة وأهلها ورآها مدينة ضاربة في أعماق التاريخ ولم تتأثر كما تأثرت غيرها من المدن بأشكال البناء الغربي وميادينه وأنها مدينة نشطة تجاريًّا وبأن الحجاج يتوافدون عليها في طريقهم باتجاه مكة المكرمة(٤).

قام كرين بزيارة للملك فيصل بن الحسين ملك العراق عام ١٩٢٩م (١٣٤٧هـ) في بغداد، وإبان وجوده في العراق خطط من خلال هذه الزيارة للمسير من بغداد وعبور الصحراء إلى الرياض عاصمة مُلك الملك عبدالعزيز. بدأ كرين رحلته من البصرة إلى الكويت، وقد تعرضت مجموعته لهجوم من رجال القبائل الهاربة من الجيش السعودي وأطلقت النار على سيارتي المجموعة، وقد قتل المنصر هنري بيلكرت في تلك الحادثة، أما كرين فقد استطاع الهروب بعد أن كاد يقتل. وقد تلقى كرين رسالة من الأمير فيصل بن عبدالعزيز يعبر فيها عن غضبه من الهجوم الذي جرى. سار كرين من البصرة

(4) David Hapgood. *Charles R. Crane: The Man Who Bet on People* (Kindle Location 1190).

تشارلز آر كرين، رحلة إلى ساحل البحر الأحمر واليمن، ترجمة محمد أبا حسين، **مجلة الدارة**، السنة ٢٩، العدد ٤، ص٢٠٨.

في زيارة لسواحل الخليج العربي، وزار بعض موانئ الخليج العربي وعندما وصل مسقط لبث فيها قرابة أسبوعين وقابل فيها السلطان تيمور بن فيصل وتبادل معه الهدايا إذ أهداه سيارة فورد قدمت إلى مسقط بعد عدة أشهر وتلقى من السلطان قاربًا صغيرًا (هوري)[٥].

تحققت أمنية كرين بلقاء الملك عبدالعزيز في عام ١٩٣١م (١٣٤٩هـ) وذلك حينما وصل إلى جدة في فبراير عام ١٩٣١م (رمضان ١٣٤٩هـ) قادمًا من القاهرة بالتنسيق مع فوزان السابق سفير الملك عبدالعزيز في القاهرة. لبث كرين في جدة أسبوعًا كان يقابل فيه الملك عبدالعزيز ثلاث مرات يوميًّا وتبادلا خلالها الأحاديث الرسمية وغير الرسمية. تحدث كرين مع الملك عبدالعزيز عن أصول الحركة الإصلاحية في الجزيرة العربية وكذلك عن توطين البدو والزراعة وعرض التعاون في مجال الزراعة والتعدين. بعد انتهاء زيارته، أهدى له الملك عبدالعزيز جوادين أصيلين. توفي كرين عام ١٩٣٩م (١٣٥٧هـ) وقد استحق أن يحمل لقب "صديق العرب"[٦].

---

(٥) وثيقة رقم 853/2/15/IOR/R، ملف 1/36 (7/1A) الإرسالية الأمريكية في البحرين، ووثيقة رقم 236/1/15/IOR/R. ملف رقم [29 B] الملخصات الشهرية للدول العربية في الفترة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣١م.

David Hapgood. *Charles R. Crane: The Man Who Bet on People* (Kindle Location 1221).

(6) Karl Twitchell, *Saudi Arabia with an account to the development of its natural resources*. (Greenwoods Publishers, New York, 1969), 214.

نُبذة عن التقرير المترجم:

هذا التقرير ضمن الأوراق الخاصة بتشارلز ريتشارد كرين (١٨٥٨-١٩٣٩م/١٢٧٤-١٣٥٨هـ) المحفوظة في أرشيف مكتبة جامعة كولومبيا في مجموعة الكتب والمخطوطات النادرة (Rare Book & Manuscript Library). يحتوي التقرير على (٢٦) صفحة باللغة الإنجليزية وكل صفحة فيها نحو (٤٥-٤٨) سطرًا. كتب هذاالتقرير بالآلة الكاتبة ويعود تاريخه إلى عام (١٩٢٩م). قام جون كرين بكتابة هذا التقرير وإرساله إلى والتر إس روجرز الذي يعد أحد أبرز رسامي القصص الكرتونية في تلك المدة، والنص خالي من التعريفات والتعليقات وجميع التعليقات من عمل المترجم.

النص المترجم:

بغداد ١٢ يناير ١٩٢٩م (١ شعبان ١٣٤٧هـ)

"هل ستنطلق الطائرة والوقت ما زال مظلمًا؟" كان هذا هو السؤال الذي وجهته إلى رجل ضخم يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، وجاء الرد السريع المرتجل بصوت عال قائلاً: "إلى حد ما!".

لم يكن هذا الرجل الضخم سوى النقيب ترافيرز (Travers)، ذلك الطيار المتمرس الذي يعمل في خط القاهرة - بغداد الجوي التابع للخطوط الجوية الإمبريالية المحدودة. وآنئذ كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، وقد كان مشغولاً بفحص جيوب وزرة الطيران العميقة في مكتب سقيفة الطائرات، حيث جرى وزن حقائبنا والسماح لنا

باجتياز الجمارك المصرية بسلاسة ودون أية رسميات. وبعد دقائق معدودة، وعندما وصلنا إلى حظيرة الطائرات الثلاث، كانت محركات بريستول - جوبيتر (Bristol Jupiter) تزأر بقوة وتدور بشكل سريع. وعندما اكتملت استعدادات الإقلاع، تم تفريغ ثلاثين جالونًا أو أربعين من الوقود من الخزانات العلوية لأننا تلقينا حمولة غير عادية من البريد القادم من لندن على متن العبارة البخارية بي و أو (P. O Steamer). وعند الساعة السادسة وعشر دقائق أشاروا إلينا بالجلوس في مقاعدنا استعدادًا للإقلاع من مطار هليوبوليس الذي يبعد عن القاهرة عشرة أميال باتجاه الشرق. كانت رحلتنا متوجهة إلى بغداد عاصمة العراق (بلاد ما بين النهرين أو مسبوت: كما هو معروف لدى الجنود البريطانيين) (Mesopotamia: alias "Mespot" of the British Tommies).

كان شروق الشمس يخترق أجواء السماء الملبدة بالغيوم عند مرورنا فوق الأنوار المومضة في ضواحي القاهرة التي كانت أنوارها تظهر بشكل متقطع. وظهرت المعالم الضبابية للأهرامات الضخمة عبر مساحة وادي النيل الممتدة. وفي داخل الطائرة، جلسنا على كراسي الخوص المريحة وكنا ثمانية أشخاص، أحدنا كان بريطانيًّا وخمسة من الأمريكيين، وتاجر قطن يهودي يعمل في الإسكندرية ولندن، ويهودية جميلة استطاع المصمم الأنيق أن يخيط لها ملابس رائعة لهذه المناسبة.

وبعد تحليقنا في الجو مدة تقارب العشر دقائق، قدم الميكانيكي النحيل صاحب التعابير الواضحة إلى الكابينة

ليسأل السيدة الصغيرة بشكل صريح عن إمكانية استبدال مقعدها بمقعد الدكتور الضخم هايزر (Heiser) الذي يعمل في مؤسسة روكفلر الخيرية[٧] والذي كان مقعده في الخلف بجانبي. وبصوت خافت شرح الميكانيكي سبب التغيير قائلاً إن الطائرة ستحلق ويتم التحكم بها بسهولة عندما يكون الوزن الأكثر في المقدمة. هذا التغيير الذي جرى سريعًا، يشهد على هدوء محركاتنا ذات التسعة سلندرات والمبردة هوائيًّا.

كنا نحلق على ارتفاع ألفي قدم فوق بحر من الرمال، ونحن نتتبع خط سكة الحديد الذي يربط بين القاهرة والقدس. وبعد مضي نحو ساعة من مغادرتنا القاهرة شاهدنا أسفل منا ما اعتقدنا أنه قناة ري مائية متوسطة الحجم. ولكن ما رأيناه لم يكن سوى قناة السويس، شريان الإمبراطورية والتجارة العالمية. وسرعان ما وصلنا ونحن نطير باتجاه الشمال الشرقي إلى السواحل الزرقاء للبحر المتوسط وأصبحت رمال سيناء الذهبية عن يميننا. وبعد أن توغلنا عدة أميال داخل البحر شاهدنا ركامة ضخمة دانية من السحاب تلوح في الأفق، ويفصلها عن البحر شريط برتقالي من الضوء عبر الأفق. وقبل تحليقنا من مدرج المطار وبعد

(٧) مؤسسة خيرية أمريكية أسسها مؤسس شركة ستاندرد أويل السيد جون دي روكفلر الأب وبمساندة من ابنه جون دي روكفلر الابن. تأسست هذه المؤسسة في نيويورك عام ١٩١٣م وكان لها تأثير كبير فاعل على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي في مختلف المجالات العلمية والطبية والاقتصادية.
Raymond B. Fosdick, *The Story of the Rockefeller Foundation,* Routledge, New York, 1989.

رؤية التقارير الواردة عبر التلغراف، أخبرنا الكابتن ترافيرز أن ثمة عاصفة هوجاء تتشكل فوق جزيرة قبرص.

بعد أن قطعنا زاوية من البحر المتوسط، رأينا غزة وهي بلدة ذات موقع إستراتيجي في جنوب فلسطين، وتبعد عن القاهرة ساعتين. تدحرجت الطائرة منحدرة للهبوط في المدرج، ولكن إطاراتها لامست الأرض بعد تخطي منتصف المدرج وانزلقت باتجاه حقل من القمح الشتوي. وبعد تدرج الطائرة خلفًا باتجاه قاعة الضيوف نزلنا من الطائرة لتناول طعام الإفطار، وعندما كنت أمشي مع البريطاني الوحيد معنا في الرحلة، الكابتن بوك (Bock) من القوات الجوية الملكية، ذكر أن الطائرة عندما كانت مسرعة جدًّا اصطدمت بالرمال الصلبة. وقد كان الأخير في طريقه إلى الهند ليتسلم عمله في بشاور، محاولاً توفير عدة أيام باختياره طريق الطيران من القاهرة إلى بغداد سبيلاً للسفر إلى حيث مقر عمله الجديد.

لبثنا في غزة نحو ساعة واحدة، فأخذنا قسطًا من الراحة، ومددنا أرجلنا وحصلنا على وجبة طعام نأكلها. كان شاي الإفطار من أقوى أنواع الشاي البريطاني المنقوع، وقد لاحظت أن الإبريق كان ممتلئًا إلى نصفه بأوراق الشاي، فسألت الكابتن بوك بسذاجة إن كان في الإبريق الذي بجواره ماء حار، ولكن إجابته، بنوع من الصرامة، بأن ما لديه هو إبريق من لبن، وهو ما جعلني أشعر بحرج شديد. كنت أرقب قنينة الصلصة (A-١) فطلبت منه أن يمدها إلي. لم يستوعب الكابتن سبب طلبي للصلصة فقال لي لماذا تريدها!! فرددت

عليه بلطف بأنني أريد تخفيف حدة هذا الشاي الفظيع.

وعندما كنا نهم بالقيام من الطاولة، قدم الكابتن بارتريدج (Partridge) من الشرطة الفلسطينية لتحيتي. وكان والدي (تشارلز كرين) والكولونيل واتسون في الأسبوع الماضي قد أقاما ليلة عنده عندما قدما بالسيارة من القدس لركوب الطائرة من غزة إلى بغداد. كان الكابتن بارتريدج متزوجًا ابنة أخ السيد صمويل أنترماير (Samuel Untermeyer) من نيويورك، وهو مثال رائع للضابط المسؤول المستقيم في الإدارة الاستعمارية. بعد أن خدم في الهند والعراق في مدة الحرب العالمية الأولى، قرر أن ينخرط في سلك الشرطة في فلسطين، ولتحقيق هذا الهدف قضى عدة سنوات من العمل متعاونًا مع قوات الشرطة في لندن ونيويورك وباريس. وتعرفت وأنا أسير في رفقته منتعشين بنسيم الصباح على جوانب جديدة من القيود السياسية التي اعترضت طريق إدارة إنرايت[٨] (Enright) في نيويورك. عندما بدأنا صعود الطائرة – مدينة القدس – سلمتني السيدة بارتريدج طردًا كان الكولونيل واتسون قد تركه وراءه ويحتوي على مطارة ماء حار وفراك (معطف طويل ورسمي)، وهي البدلة التي لا مفر منها للمجموعة الاجتماعية الراقية في الإمبراطورية.

أقلعنا من غزة قبل الساعة التاسعة بقليل، وارتفعنا إلى

(٨) ريتشارد إنرايت: ضابط شرطة أمريكي شغل منصب رئيس شرطة نيويورك بين عامي (١٩١٨–١٩٢٥م). **مجموعة ريتشارد إنرايت**، مكتبة لويد سيلي، كلية جون جاي للعدل الجنائي، نيويورك.

خمسة آلاف قدم حتى يكون الطيران سهلاً فوق التلال الحمراء للضفة الغربية من فلسطين. بعد ذلك بقليل أصبحنا نحلق فوق بلدة بيت لحم وإلى الشمال قليلاً كنا نستطيع تمييز منارات وقبة المسجد الأقصى في القدس. وبعد ذلك بنصف ساعة شاهدنا أروع منظر في رحلتنا، ألا وهو البحر الميت الذي يشبه ياقوتة ضخمة مذهبة. وبعد أن تجاوزنا تلال مواب[٩] في شرق الأردن، دخلنا الصحراء السورية الفسيحة التي تمتد إلى الشرق باتجاه وادي الفرات وإلى الجنوب تلتقي بصحراء الجزيرة العربية. وعند حافة الصحراء، عبرنا سكة حديد الحجاز إلى الجنوب من عَمَّان التي اختيرت نقطة إستراتيجية في حملة الشريف فيصل ولورانس في ربيع عام ١٩١٨م (١٣٣٦هـ) عندما كانت القوات العربية تخطط للالتقاء مع جيش آلنبي (Allenby) قبل الزحف إلى دمشق، والحقيقة أننا الآن متجهون إلى بلد فيصل الجديد الذي حصل عليه بمساعدة البريطانيين بعد أن تمت الإطاحة به من قبل الفرنسيين في سوريا.

كانت الطائرة تسير بالسرعة المعتادة التي بلغت تسعين ميلاً في الساعة، وكان قد مضى من الزمن قرابة الساعة والنصف منذ إقلاعنا من غزة، حين تعطل أحد محركات الطائرة ولاحظنا أن مقياس الارتفاع قد بدأ ينخفض، وبدأنا

(٩) منطقة تقع في شرق الأردن، وقد ذكرت في الكتاب المقدس كثيرًا، وترتفع عن سطح البحر نحو (٣٠٠٠) قدم وترتفع بشكل تدريجي من الشمال حتى الجنوب. يحدها من الشرق عمان والصحراء العربية.
http://www.jewishencyclopedia.com/articles/10898-moab

نحلق دائرين نحو الأسفل حول مخفر تركي مهجور. اعتقد الكابتن بوك أننا خرجنا من منطقة الرياح الجوية الباردة، ولكن عندما هبطنا قليلاً شاهدنا ما يشبه الغطاء الأسود لصهريج وقود مدفون في الصحراء. وعلى أي حال، هبطت الطائرة فوق سطح أرض بازلتية في الصحراء السورية. فتح الطيار باب الكابينة، وقال إنه يجب أن نملأ خزان الوقود لأن الرياح متغيرة الاتجاهات، ولن نستطيع أن نصل إلى آبار الرطبة[١٠] بسبب الحمولة الزائدة والرياح القوية. ذكّرتني التطمينات التي جاءت بصوت الكابتن ترافيرز بأن كيسرلينغ (Keyserling)[١١] قال في إحدى المرات إن السائق هو طراز البطل في العالم الجديد، ولكن أعمال ليندبيرغ[١٢] (Lindbergh) البطولية وضعت الطيار في المرتبة الأولى كمحبوب للجماهير.

سارعنا باتجاه الأرض السوداء الصلبة في حين أن الكابتن ترافيرز ومساعده الميكانيكي كانا يفكان غطاء الصهريج

(١٠) مدينة في غرب العراق، وتعد نقطة وصل للمنطقة الواقعة بين العراق والأردن والمملكة العربية السعودية. كان بها حصن كبير للبريطانيين في مدة وجودهم في العراق واتخذوها محطة توقف في خط الطيران بين الهند وبريطانيا. بشير يوسف فرنسيس، **موسوعة المدن والمواقع في العراق** ٢٠١٧م، ١/ ٥٢٠.

(١١) هيرمان فون كيسرلينغ، فيلسوف ألماني (١٨٨٠- ١٩٤٦م).

(١٢) طيار أمريكي شهير ولد عام ١٩٠٢م في مدينة ديترويت بولاية ميتشيغان. اكتسب شهرة واسعة بسبب قيامه برحلة متواصلة لوحده من نيويورك إلى باريس عام ١٩٢٧م. **موسوعة بريتانيكا**، (مادة تشارلز ليندبرغ).
https://www.britannica.com/biography/Charles-Lindbergh

ذي الثلاثمئة جالون، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نساعدهما في شفط نحو من ستين جالونًا من السائل الثمين في هذه الصحراء المنعزلة. وقد شعرنا بالانتعاش بسبب الرياح الصحراوية الباردة، فقد كنا في تلك البقعة نرتفع عن سطح البحر بنحو ألفي قدم. وعندما عدنا نحلق على ارتفاع خمسة آلاف قدم، أصبح الجو باردًا فعلاً، ولكن مع حرارة الجو كان من السهل التحليق في ذلك الارتفاع. والحقيقة أن ذلك يشبه الإبحار في رياح نسيم قاسية في أنيتا (Anita)، وذلك لثلاث ساعات ونصف حتى هبوطنا في الرطبة، في حين أن رفيقنا الصغير في المقدمة قد أمضى وقتًا كريهًا خلال تلك الرحلة.

عند التحليق فوق بحر من الماء أو الرمال، كان من المستحيل حتى على طيار متمرس أن يحتفظ بمسار دقيق، وهذه كانت إحدى المشكلات التي تستدعي حلها قبل أن يكون توفير خدمة طيران منتظمة فوق الصحراء السورية ممكنًا. استطاعت القوات الجوية الملكية في عام ١٩١٩م (١٣٣٧هـ) أن تتخطى هذه العقبة بحفر أخدود عريض يمتد من عَمّان إلى الفرات بطول ستمئة ميل. قام بحفر هذا الأخدود مجموعتان من الأهالي تحت إشراف البريطانيين، حيث بدأت كل مجموعة بالحفر من الجهتين المتقابلتين لتلتقيا بعد سبعة أشهر من العمل غير المقدّر وغير المشكور تحت أشعة الشمس الحارقة. واليوم هذا الأخدود قد اندثر في كثير من الأماكن بسبب آثار السيارات العابرة للصحراء، وعليه فإنه يحتاج إلى تجديد كل سنتين أو ثلاث سنوات.

بالتحليق فوق هذا المسار، كانت الساعة الثانية ظهرًا حينما هبطنا في آبار الرطبة (حصن بناه البريطانيون) لتناول الغداء. وبعد أن أصبحنا الآن داخل حدود العراق، قمنا بتقديم ساعاتنا ساعة واحدة. تستمد الرطبة مياهها من آبار إرتوازية، وبذلك أصبحت نقطة مهمة للتوقف في الطريق بين بغداد ودمشق، وبما أن الغارات البدوية عادت إلى الظهور مرة أخرى في تلك المدة، فإن مجموعات السيارات اتخذت من الرطبة محطة للتوقف الليلي.

أقلعنا في تمام الساعة الرابعة، وحلقنا بارتفاع منخفض يصل إلى ألفي قدم في المرحلة الأخيرة من رحلتنا. هذه المرة، كان معنا راكب جديد في المقصورة، وهو الميكانيكي، ذلك أن السيدة الصغيرة التي هددت بالبقاء في الرطبة دعيت من قبل الطيار ترافيرز لتجلس بجانبه وتستنشق هواء نقيًّا. وعندما بدأ يحل الظلام عادت مرة أخرى إلى مقعدها في المقصورة وشكرًا لهذا التغيير وللطيران المريح وقت الغروب الذي أعادها إلى حالة جيدة.

وبعد ساعة من الطيران بعد إقلاعنا من الرطبة، أصبحنا نحلّق فوق أراض خصبة. وبحلول الظلام، شاهدنا أسفل منا بحيرة الحبانية[١٣] ومن ورائها الفرات. وكنا متوجهين مباشرة باتجاه بغداد التي تقع على ضفتي نهر دجلة هذا النهر الذي

(١٣) بحيرة تقع في غرب مدينة الرمادي في محافظة الأنبار خلف التلال القائمة في غرب الفرات، وتبلغ مساحتها عند امتلائها نحو ٤٠٠ كم مربع وتستوعب مليارى متر مكعب من المياه. بشير يوسف فرنسيس، **موسوعة المدن والمواقع في العراق**، ٢٩٤/١.

يعني في الفارسية القديمة (السهم). حل الظلام سريعًا وكانت السماء ملبدة بالغيوم بشكل كامل. وعندها شاهدنا أنوار "مدينة الحدائق" أمامنا بعدة أميال وقد تخطت الساعة السادسة والنصف. وكانت المشاعل قد وضعت استعدادًا لهبوط الطائرة.

حلقنا فوق المطار على ارتفاع ألف قدم وقمنا بإطلاق شعلة خضراء من أجل السماح بالهبوط واستجاب الطاقم الأرضي في بضع ثوان بإطلاق شعلة مشابهة، ومن انفجار الشعلات التي تم إطلاقها، عرفنا اتجاه الرياح. وطفنا بحذر ونحن نهبط ومحرك الطائرة يعمل بنصف طاقته، ولكن سرعة الطائرة كانت أعلى من مئة كم في الساعة. حلقنا مسرعين بشكل منخفض فوق أراضي دجلة الموحلة بارتفاع مئة قدم، وبعد أن أصبحنا فوق المدرج أطلقنا شعلة صفراء أسفل الجناح الأيمن. وبارتفاع عدة أقدام فوق الأرض انطفأت الشعلة، فأطلقنا الشعلة الأخرى على الجناح الأيسر. اصطدمنا بالأرض، تلا ذلك قفزة طويلة، ثم قفزتان قصيرتان، ثم هبطنا بسلام على الأرض باتجاه المطار. وصلنا إلى نقطة توقف تبعد نحو خمسين قدمًا من الحظيرة، ثم سرنا باتجاه السطح الخرساني. كان والدي حاضرًا لاستقبالي وتهنئتي بالوصول في بغداد، وكان شديد الحماسة بعد تجربته ركوب الطائرة للمرة الأولى الأسبوع الماضي في السبعين من عمره.

قبل مغادرتنا غرفة الضيوف حيث كنا نجمع حقائبنا قطعة قطعة، شكرنا الكابتن ترافيرز على الرحلة الممتعة،

والذي بادر على استحياء بالاعتذار عن الهبوط السيئ بسبب أن الشعلة الأولى استمرت في الاشتعال أكثر من عمرها الافتراضي وهو خمس دقائق، ومن ثم فإن إشعال الأخرى جاء وهم على مقربة من الأرض، وهو ما جعله يتخبط في حساباته.

هناك سؤال هل كان خط سير القاهرة – بغداد يُعد من أفضل خطوط السير الجوية في العالم؟ قمت قصدًا بعرض روايتي الخاصة بالرحلة بتفاصيل كثيرة، لكي أوضح كيف أن الشرح التفصيلي الكامل هو أساس التنظيم التوجيهي في كل الإدارات. ومن البديهي القول بتفوق البريطانيين في التنظيم على الأرض، فالطيارون هم من الذين تدربوا في مدة الحرب، في حين أن الطائرات المستخدمة في هذا الخط تعد أكثر تفوقًا من الطائرات المستخدمة في خط لندن – باريس، ولا أستثني من ذلك خدمة الجناح الفضي (the Silver Wing) التي ركبتها مع ديكي (Dickie) في سبتمبر الماضي. بدأ خط طيران القاهرة – بغداد في عام ١٩٢٥م (١٣٤٣هـ) بخمس طائرات من طراز دي هافيلاند (De Haviland) ومن الممكن أن تطير حتى البصرة الميناء العراقي على الخليج العربي. هذه الخدمة أسبوعية، وقيمة التذكرة من القاهرة إلى بغداد مئة وستون دولارًا أمريكيًّا وتقدر مسافة الرحلة بنحو ثمانمئة وخمسين ميلاً. ربما يتم في هذا الربيع تدشين خطي لندن – كراتشي، ولندن – كيب تاون، وهي أجزاء مهمة في المواصلات الإمبراطورية، وهو يجعل لندن في متناول من

يريد الوصول إليها من الهند أو جنوب إفريقيا خلال أسبوع. استغرق التحضير لهذه الخدمة عدة سنوات من خلال التأكد من تجهيز المدارج والبنية التحتية، صهاريج الوقود للطوارئ التي تتمركز على طول الخط، إلخ... كذلك سيتم استخدام السفن البحرية في خط مارسيليا – مالطة – القاهرة العابر للبحر المتوسط. من الممكن القول إن خط البصرة – كراتشي هو الذي يسبب بعض الصعاب التي تفاقمت نتيجة موقف الحكومة الفارسية العدائي من حقوق الهبوط والإذن بالتحليق فوق الأراضي التابعة لها. حتى اليوم، استطاعت الخطوط الجوية الإمبراطورية أن تنتزع إذن التحليق لخدمة أسبوعية في حين أنها تخطط لكي تكون الخدمة في العام المقبل مرتين أسبوعيًّا. وحسب فهمي لهذا الأمر، فربما يعني أن خدمة شبكة الجنكر الألمانية (the German Junker) في فارس قد تحصل على حق التحليق إلى بغداد، وهي خدمة مطلوبة جدًّا هذه الأيام في هذه الأنحاء.

البصرة، ٢٠ يناير ١٩٢٩م (٩ شعبان ١٣٤٧هـ):

بما أنك ستسمع بعض المعلومات عن العراق في هذه الرسالة، لعل بإمكانك أن تتحمل منذ البداية قدرًا ضئيلاً من الحقائق التي سأذكرها كاستهلال. دولة العراق حجمها قريب من حجم ولاية كاليفورنيا وتتكون من إيالات الموصل وبغداد والبصرة التي كانت تعد جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. إنها بلاد النهرين التوأم دجلة والفرات، ولفظة (مسيبتوميا) حرفيًّا تعني بلاد ما

بين النهرين. جارتها الشمالية هي تركيا، وتقع فارس على حدوها الشرقية، وفي الغرب سوريا الفرنسية وشرق الأردن والجزيرة العربية (مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها)[١٤]. لدى العراق منفذ من ناحية الجنوب يطل على الخليج العربي عبر ميناء البصرة العريق، مدينة السندباد البحري.

من الناحية الجغرافية، ينقسم العراق إلى قسمين رئيسين: القسم الشمالي قسم جبلي والمناخ فيه معتدل. أما القسم الجنوبي فهو القسم الأكبر من البلاد، فيتكون من السهل الفيضي الذي يقع بين النهرين التوأمين - دجلة والفرات - حيث يصل متوسط ما يهطل فيه من أمطار إلى ست بوصات سنويًّا، وعليه فإن العراق يعتمد بشكل حيوي على نظام الري. ويزرع فيه القمح والشعير في الشمال، والأرز والتمور في الجنوب، وتكون للاستهلاك المحلي في الغالب، وتصدر التمور والصوف والجلود، كما أن إمكانية أن يصبح الزيت من أهم صادرات البلاد واعدة. وأبرز الواردات المنسوجات والسكر والدقيق.

يبلغ عدد سكان العراق ثلاثة ملايين نسمة، ويشكل العرب منهم أكثر من مليونين، في حين يشكل الفرس واليهود والمسيحيون الآشوريون والأرمن عشرات الألوف من مجموع السكان. كما أن هناك نحو نصف مليون كردي في العراق، ويتضاعف هذا الرقم ثلاث مرات أو أربعًا عند عبور الحدود باتجاه تركيا وفارس. الأكراد مسلمون، ومع أنهم يرغبون في

(١٤) المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢م.

دولة مستقلة خاصة، فإنهم كما يبدو راضون جدًّا بوضعهم الحالي في العراق.

يعود تسعة أعشار السكان في العراق إلى أصول قبلية ولدى الكرد والعرب والمسيحيين في الشمال تنظيم وأعراف اجتماعية تختلف عن الأتراك الأناضوليين. بمعنى آخر، سكان شمال العراق لديهم صفات سكان الريف ممزوجةً بأعراف العشيرة ومشاعرها. وفي جنوب العراق، وفي الجانب الآخر معظم السكان من سكان البادية ويعملون في الزراعة أو تربية الماشية. وحتى تستطيع الدولة توطين هذا الجزء من السكان، فإن عليها أن تقوم بحل مسألة الري.

دولة العراق ملكية دستورية، ورئيس الدولة هو الملك فيصل ابن الملك حسين ملك الحجاز السابق، والشريف السابق لمكة المكرمة الذي تم انتخابه عام ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ). والعراق حاليًا تحت الانتداب البريطاني. وفقًا لمعاهدة ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ) ووثائقها اللاحقة بين العراق والحكومة البريطانية ستقوم الحكومة البريطانية باستخدام مساعيها الحميدة حتى يحصل العراق على عضوية عصبة الأمم دولةً مستقلةً بعد تأمين نظام حكم مستقر في البلاد. هذه الاتفاقيات تنتهي فعاليتها بعد خمسة وعشرين عامًا أو عندما تتم الموافقة على عضوية العراق في عصبة الأمم، وذلك لأن معاهدة ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ) تشترط أن لا تتم عضوية العراق قبل عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ). في تلك الأثناء، ووفقًا للمبادئ الأساسية للانتداب التي بموجبها منحت عصبة

الأمم، فإن على البريطانيين تعليم العراقيين أسس الحكم الذاتي والإدارة، وحتمًا هناك عدد من القضايا القائمة بين الطرفين نابعة من حقيقة أن بريطانيا العظمى استولت على العراق من تركيا خلال الحرب.

يواجه العراق عدد من المشكلات الجوهرية قبل أن تعد هذه الدولة الجديدة آمنة ومستقرة في هذه المجالات.

١- الدفاع: العراق معرضة للهجوم من ثلاث جهات من قوى غير صديقة، تعد فارس والجزيرة العربية[١٥] (يقصد مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها حينها) دولاً معادية للعراق، بينما يمكن الحديث حول ما إذا كانت تركيا قد تخلت عن آمالها باستعادة حقول الزيت في الموصل، وقد أوضح البريطانيون أن بإمكانهم حماية العراق بخمسين طائرة.

(١٥) دخل الملك عبدالعزيز الرياض عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م وبدأ بتوحيد المناطق التي كانت تابعة لآبائه وأجداده واستطاع خلال ٣٠ عامًا توحيد معظم الأجزاء التي خضعت لسيطرة الدولة السعودية وسلطتها. وحينما نقرأ عن تلك الملحمة نجد أنها كانت من أروع قصص الوحدة حيث لم يقم الملك عبدالعزيز بأي اعتداء ضد أية قوة بل كان الأهالي هم من يبادرون بطلب الملك عبدالعزيز ليحكمهم. كما لم يتخذ الملك عبدالعزيز مواقف عدائية ضد أي كيان أو فرد، والدليل على ذلك موقفه الحيادي خلال الحرب العالمية الأولى. كان بلاط الملك عبدالعزيز ملجأ لكل مظلوم وهارب من نير البطش ليتم تكريمه والإحسان إليه بشكل أجمع عليه الجميع ولم يكن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود يرغب في امتداد نفوذه خارج الجزيرة العربية كما لم يكن يظهر رغبات توسعية باتجاه العراق أو غيرها، وقد عمل بشكل دائم على وحدة الأراضي العربية ولم يتدخل في شؤون الآخرين، بل قابل إساءاتهم بالإحسان ودعمهم بكل ما يستطيع في سبيل وحدة أراضيهم والحفاظ عليهم.

٢- السلامة العامة: شكّل البريطانيون نظام شرطة ممتاز لكل أراضي الدولة التي تحت سيطرتهم، وما زال ولاء الجيش الجديد للزعماء الأصليين بحاجة إلى إثبات في حال انسحب البريطانيون بقضهم وقضيضهم من البلاد.

٣- الاستقرار الداخلي: ما زال النظام البرلماني جديدًا ولا يمثل إلا نسبة ضئيلة من الأهالي وفعاليته بسيطة على الأرض. وقد فشل القادة البريطانيون والعراقيون في ربطه بالنظام العشائري القوي في الدولة. ولكن في الوقت نفسه، فإن المستشارين الإداريين البريطانيين في كل مقاطعة هم مَن يستطيعون جعل تلك القبائل في حالة سلم، وفي المقابل لم تكن القبائل بدورها أكثر تلهفًا لاستمرار الوجود البريطاني، كما هو الحال مع السياسيين والمهيجين في بغداد. وسأتحدث بشكل أكبر عن هذه المشكلات في الوقت المناسب.

كان من المحتم أن نُزَح في دوامة السياسة ومرتعها خلال الأسبوع الذي قضيناه في بغداد، وهناك اتضح لنا وجود تيارين فكريين سياسيين في العراق اليوم، الأول موالٍ للبريطانيين والآخر معادٍ لهم. الحزب الموالي للبريطانيين يسعى للاستقلال الذي تمت ضمانته من قبل الإنجليز في حين يطالب الآخرون (الغوغائيون)[١٦] وهم الحزب الأكبر بطرد الحكم البريطاني. هذه المجموعة الأخيرة تدعم

(١٦) قام جون كرين بإطلاق هذا الوصف على هذه المجموعة ولا أرى أنه يليق تسميتهم بهذا الاسم، وقد يكون سبب التسمية عدم التنظيم الذي رآه.

انضمام العراق شفهيًّا لعصبة الأمم لما يرونه ضمانًا لسلامة أراضي العراق ووحدتها في ذلك، وعليه فإن كلتا المجموعتين لا تمانعان في الاعتراف بأن العراق غير قادر على حماية أراضيه في الوقت الحاضر. في الوقت نفسه، فإن هاتين المجموعتين تشتركان في سمة واحدة ألا وهي افتقارهما لأي برنامج عمل بنّاء للنهوض بالبلاد.

بينما كنا في بغداد، رحب الحزب الوطني المعارض لبريطانيا بوالدي في حفل استقبال مهيب. بسبب الخطب اللامعة التي ألقيت للترحيب في تلك المناسبة، كان الخوف هو أن تؤدي تلك الخطب المزخرفة إلى تحول هذا الاجتماع إلى أعمال شغب سياسية. ولأن والدي كانت لديه خبرة كبيرة جدًّا في التعامل مع مثل هذه المواقف خلال مدة وجوده في الشرق، فقد تعامل مع هذا الموقف ببراعة وبذكاء. كان جوابه على المشاعر العاطفية التي شاهدها صريحًا وديًّا، وتحدث إليهم مباشرة معلنًا بأنه ليس من أولئك الذين يعتقدون في أن هناك حلولاً سياسية سهلة للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى، مشيرًا إلى أن قوة أمريكا تمخضت عن تسخير طاقاتها أساسًا للعمل البناء الذي يقع بعيدًا عن المجال السياسي. بعد ذلك، تحدث عن الأعمال الأولى لروكفلر[١٧] في الولايات الجنوبية من أجل القضاء

(١٧) ولد جون دايفسون روكفلر في ريتشفورد في ولاية نيويورك عام ١٨٣٩م، ورأى بحدسه أن صناعة الزيت ستكون من أنجح الصناعات؛ لذا عمل لإنشاء معمل لتكرير الزيت في كليفلند في ولاية أوهايو عام ١٨٦٥م وأراد أن تتوسع الشركة بسرعة، فافتتح عددًا من الفروع لها =

على الأوبئة مثل دودة الإنسيلوستوما[١٨] وكذلك لتطوير طرق الحصاد. وكانت هذه نصيحة عظيمة لبلد تتفشى فيه الأمراض ولكن تلك النصائح لم تلق آذانًا صاغية.

لم تستطع كل الأفكار المتأصلة في العقل الشرقي، هيّنة الانقياد، من تحويل حديث والدي إلى ما فيه المصلحة العامة للبلاد، ولكن بعد بضعة أيام حدثت مناسبة غيرت مجرى الأحداث بشكل مسل. في الليلة التي سبقت مغادرتنا بغداد باتجاه الجنوب، أقام الملك فيصل حفل عشاء لوالدي وقد كان حدثًا ممتعًا، شكرًا للسحر الاستثنائي لمضيفنا الملك. على الرغم من أن والدي كان يعرفه منذ أيام دمشق العصيبة عام ١٩١٩م (١٣٣٧هـ)، إلا أنها المرة الأولى التي أراه فيها. قبل تقديم العشاء بنصف ساعة، تحدثنا بشكل خاص عن رحلتي القريبة إلى موسكو. وفي النهاية عندما

= في نيويورك وغيرها من المدن. قام روكفلر في تلك المدة بدراسة السوق وحاجاته والشركات المنافسة له وجودة المنتج، وأسس شركة ستاندرد أويل عام ١٨٧٠م التي استطاع من خلالها احتكار صناعة الزيت في الولايات المتحدة لأكثر من ربع قرن. توفي روكفلر عام ١٩٣٧م. يعد روكفلر من كبار المتبرعين في تاريخ الولايات المتحدة وأنشأ لذلك مؤسسة روكفلر الخيرية (the Rockefeller Foundation) عام ١٩٣٧م.

M. S. *Vassiliou, Historical Dictionary of the Petroleum Industry,* p 226.

(١٨) الدودة الشصية، دودة انتشرت بشكل كبير في جنوب الولايات المتحدة وتتكاثر في الأمعاء الدقيقة وتتسبب في أعراض مختلفة منها فقر الدم. منير البعلبكي، **قاموس المورد**، ص٤٣٤؛
https://www.cdc.gov/parasites/hookworm/index.html

أُحضر العشاء طُلب لوالدي أن يُدلي بحديث قصير، فما كان من والدي إلا أن قص عليهم قصة لص بغداد الفقير...[١٩].

(١٩) القصة تتحدث عن لص حضر إلى مجلس القضاء في حالة رثّة وقال: إني صعدت إلى أحد البيوت عبر أحد السلالم إلى السطح وحينما أحسست بالأمان وأردت الإمساك بالنافذة سقطتْ وسقطتُ أنا إلى ساحة المنزل لذلك أطالب بتعويض من صاحب المنزل. قال القاضي بأن الدعوى منطقية وأمر بإحضار صاحب المنزل. سمع صاحب المنزل القصة وقال: إن كلام اللص صحيح ولكن المسؤولية ليست علي، فقبل يوم أحضرت نجارًا وطلبت منه أن يعيد إصلاح النافذة بأفضل الأنواع الموجودة لديه وقد أكد لي ذلك. قال القاضي كلامك منطقي وأمر بإحضار النجار. حضر النجار واستمع إلى القصة وأكد صحة رواية صاحب المنزل ولكنه دافع عن نفسه بأنه وهو منهمك في العمل مرت امرأة جميلة وتلبس فستانًا أزرق وأنها هي السبب الذي جعله ينشغل عن العمل بها. فأمر القاضي بإحضار المرأة فلما حضرت واستمعت إلى الدعوى قالت: إن كلام النجار صحيح ولكن جمالي من الله فأنا لا أستطيع التدخل فيه أما جمال لون فستاني فهو بسبب الصباغ. فأمر القاضي بإحضاره، فلما حضر الصباغ واستمع إلى الدعوى قال: إن ما قالته المرأة صحيح فقد طلبت مني أجمل فستان في بغداد وأحضرت لي العناصر المطلوبة فصبغته لها وأنا فخور بنفسي بهذا العمل. قال القاضي إذن فإن عملك هذا قد أدى إلى أن النجار لم يتقن عمله وأدى إلى سقوط اللص من الأعلى فأنا أحكم عليك أن يذهب بك إلى البيت الذي سقط فيه اللص وتشنق أمام بابه. وبينما القاضي في مجلسه سمع جلبة ونداءً يقول ليس هناك عدل في بغداد عدة مرات فرد القاضي: بل هناك عدل، فقالوا: إننا ذهبنا لنشنق الصباغ على الباب فوجدناه أطول من الباب. فقال لهم: فما عليكم الآن إلا البحث عن صباغ قصير.

David Hapgood. *Charles R. Crane : The Man Who Bet on People*. Xlibris. Kindle Edition.

كان السياسيون الحضور في مجلس الملك عجلين في تفسير معانيهم الخاصة من حديث والدي، ولم يكن هناك من شيء يقنعهم بأن حديث والدي كان خاليًا من تلميحات ذات مغزى سياسي. وقد تطورت القصة أخيرًا لتفسر على أن اللص الفقير هو بريطانيا والصباغ هو العراق في حين أن القاضي هو عصبة الأمم التي ستشنق الصباغ سواء كان مذنبًا أم لا.

غادرنا بغداد في الرابع عشر من يناير لنقضي خمسة أيام نشاهد فيها المواقع القديمة والجديدة في وادي الرافدين، وقد كنا محظوظين لوجود قائدنا ومرافقنا الدكتور جون فان إس[٢٠] (Dr. John Van Ess)، وهو منصّر للكنيسة الهولندية الإصلاحية الأمريكية في هذه المناطق منذ عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ). يعرف فان إس عرب العراق والخليج العربي ربما أفضل من أي أوروبي آخر، ويتحدث اللغة العربية بطلاقة تامة، كما وضع كتابًا باللغة العربية. كانت وظيفته الأساسية هي إدارة مدرسة رائعة صغيرة في البصرة، وأتاح

(٢٠) منصر أمريكي ولد في ولاية ميتشيجن عام ١٨٧٩م وتعلم في كلية هوب (Hope) في الولاية نفسها وبعدها توجه إلى الشرق الأوسط عام ١٩٠٢م حيث تعلم العربية في البحرين عام ١٩٠٣م. عمل في الكنيسة الهولندية الإصلاحية الأمريكية في البصرة وزار معظم مناطق الخليج العربي وشمال العراق. قام هو وزوجته دوروثي بتأسيس مدرسة للبنين والبنات في البصرة. ألف عددًا من الكتب عن العراق وعاش فيها طوال حياته حتى توفي عام ١٩٤٩م.
Dorothy Van Ess, *Pioneers in the Arab World, the Historical series of Reformed Church in America*, WM. B. Eerdmans Publishing, Michigan, 1974, P. 16.

لنا الأسبوعان اللذان قضيناهما معًا فرصة رائعة لمناقشة قضايا العرب معه.

كانت العناية بنا كبيرة، كانت رحلتنا إلى الجنوب عن طريق عربة خاصة زودنا بها الكولونيل تينش، رئيس خطوط سكة الحديد العراقية، الذي رافقنا ساعة أو نحوها. والسكك الحديد هي إحدى نقاط الخلافات اليوم بين الحكومتين، إذ تم بناء هذا الخط بواسطة جيش الاحتلال البريطاني إبان الحرب، وهو الآن تقنيًّا من أملاك حكومة الهند، وتتم إدارته عبر طاقم أجنبي، بريطانيون في الأعلى وهنود في الأسفل. شيئان يجب أن يحصلا قبل تسليم الحكومة البريطانية سكة الحديد للحكومة العراقية – سعر يجب أن يتم الاتفاق عليه، وطاقم عراقي مدرب. وفي الواقع، بدأ التوظيف التدريجي للعراقيين في الخدمات التابعة للسكك الحديدية، وتتم ترقيتهم ما داموا يعملون بجد واجتهاد، ولكن البريطانيين يرفضون علنًا إدارة سكة الحديد بمسؤولية مزدوجة، وفي المقابل فإن سياسيي بغداد ينظرون إليها كأنها وَقْف مربح.

يبلغ عرض كل قضبان خطوط سكك الحديد الموجودة في العراق مترًا واحدًا ما عدا خط سكة حديد آخر قصير ذي قياس أعرض يجري من بغداد إلى وادي الفرات، وعرضه نحو متر ونصف، وقد بناه الألمان كخط رابط لخط برلين بغداد. يعبر الخط الرئيس الأراضي العراقية من البصرة عبر بغداد باتجاه الشمال ولكنه يتوقف قبل الموصل بنحو (١٥٠) ميلاً. كما أن هناك خطًّا باتجاه الشمال الشرقي إلى الحدود الفارسية ويتوجه بعد ذلك إلى طهران، مما يجعله

منفذًا طبيعيًّا لغرب فارس، ومنذ عدة سنوات مضت، قامت فارس بمنح عقد لشركة عالمية من أجل بناء الخط الحديدي الأول لها، ولكن لأسباب عسكرية ومصالح نفوذ، فإن هذا الخط الذي يجري بناؤه الآن، يعبر الشمال باتجاه الجنوب إذ يبدأ من بحر قزوين مرورًا بطهران حتى الخليج العربي وتبعد محطته الأخيرة قرابة (٥٠) ميلًا عن البصرة. سيبدأ العمل في مشروع خط بغداد - حيفا الذي يصل إلى البحر المتوسط العام المقبل. هذا الخط سيكون مهمًّا بشكل كبير من الناحية الاقتصادية للعراق وحتى فارس إذا فسح المجال لطرق التجارة الطبيعية.

أولى محطات التوقف بعد خروجنا من بغداد كانت كربلاء والنجف البلدتان اللتان يحج إليهما أتباع المذهب الشيعي. تنقسم بلاد الإسلام الآن إلى طائفتين كبيرتين: السنة الذين يعدون أنفسهم مسلمين تقليديين، والشيعة وهي الكلمة العربية لكلمة (schism) وتعني الانشقاق. فارس هي قاعدة الشيعة حيث تطور المذهب فيها فأصبح مذهبًا وطنيًّا مع جذور تعود إلى الديانة الزرادشتية المنقرضة. كما أن هناك عددًا كبيرًا من الشيعة في العراق وساحل الخليج العربي وغرب أفغانستان والهند. تاريخيًّا، يمثل الشيعة المجموعة المتبقية التي رفضت سلالة الخلافة الأموية في دمشق وسلالة الخلافة العباسية في بغداد، ويعتقدون أن الخليفة الشرعي للرسول (ﷺ) هو علي زوج بنت الرسول (لم يكن

للنبي محمد (ﷺ) أبناء)[٢١] وبعده يأتي الحسين، وكلاهما قتل على يد زعماء بني أمية[٢٢]، وقد تم دفنهما في النجف وكربلاء، بينما ضريح إمام آخر (لم يعترف الشيعة بمسمى خليفة) قرب بغداد في ضاحية الكاظمية في أفخم مساجد العراق، وبشكل عام، كان هناك عشرة من أئمة الشيعة[٢٣]، وأن الإمام الأخير، حسبما يعتقدون،لم يمت ولكنه اختفى حتى يأذن الله له بالعودة ليحكم بالإسلام والعدل.

المذهب الشيعي مذهب قوي من الناحية الروحية (التصوف)، تبجيل المزارات والأضرحة والآثار المقدسة، وكل ما يتطلبه هذا الموقف الذهني. كانت كل هذه المعتقدات بالنسبة للسني التقليدي تعد محض وثنية، خصوصًا بالنسبة للوهابيين المتزمتين الذين يُحكمون تحت قيادة ابن سعود الذي يحكم الجزيرة العربية الأصلية، ومن ذلك مديريات نجد والأحساء والحجاز، فالوهابيون هم أشد المسلمين تطرفًا وأصولية[٢٤]،

(٢١) كان للرسول ﷺ ثلاثة من البنين، وهم: القاسم وعبدالله وإبراهيم ولكنهم توفوا صغارًا.

(٢٢) لم يُقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بني أمية بل كان الخوارج هم من دبر قتله.

(٢٣) يعتقد الشيعة بوجود ١٢ إمامًا.

(٢٤) هذه عبارة عارية عن الصحة، اتبع السيد جون كرين الدعاية المضادة والصورة النمطية عن أتباع الدعوة الإصلاحية، فلم يكن أتباعها متشددين أو متطرفين في تعاملهم مع الآخر، وهذا الأمر ثابت تاريخيًا منذ قيام الدولة السعودية الأولى حتى اليوم، بل اتبعوا سياسة التعايش والدعوة بالتي هي أحسن. فالسيد كرين لم يلتق بأحد منهم ولم يزر المملكة العربية السعودية حتى ذلك الحين ومع ذلك أطلق هذا الحكم.

وهم متشددون في قضية إعادة الإسلام إلى القرآن الكريم والحديث، ونبذ كل أشكال البدع التي تسللت في الشعائر الدينية بعد وفاة الرسول (ﷺ).

كربلاء والنجف مدينتان عربيتان جذابتان فيهما أسواق نابضة بالحياة. ومسجدا علي والحسين مثالان فاخران للعمارة الفارسية، وبالطبع فهذا الجمال الأخاذ المتمثل في السطوح المقرمدة الفارسية التي لا تضاهى بألوانها الزرقاء والخضراء والصفراء والوردية الزاهية، ومع ذلك فإن الأحوال قد تغيرت وتضاءلت حركة الحج منذ اندلاع الحرب بشكل كبير، وعلى وجه الخصوص من فارس التي منعت رعاياها من الحج. قبل جيل من الآن عندما زار فان إس هاتين المدينتين المقدستين للشيعة شعر بعدم ارتياح شديد ولاقى إهانة كبيرة، وما زالت هذه الآثار التي تدل على تلك المشاعر القديمة المتطرفة ضد الكافر موجودة حتى اليوم. وعلاوة على ذلك، فإن تأثير الزعماء الدينيين، الملالي (معلمين – لأن الإسلام ليس به رهبان) والسادة (السلالة الشريفة للنبي محمد ويتميزون بعمامة خضراء) أخذ يتناقص بشكل لافت للنظر.

الإسلام كقوة سياسية نشأت من أجل التصدي لنفوذ الآخر وقوته ولكنها اليوم قصبة مكسورة، وفي كل مكان طرحت فكرة التضامن الإسلامي التي كانت أداة تركيا لتخويف الغرب، إلا أنه قد تم إهمالها بشكل كبير بسبب طوفان القومية المتصاعد. ومسار الأحداث في تركيا تحت حكم مصطفى

كمال وفارس تحت حكم رضا شاه تبين أن حركة التضامن في طريقها إلى الزوال. ومع ذلك فإن العالم الإسلامي يعيش اليوم حالة كبيرة من الهياج والاضطراب والمشاعر المعادية للأوربيين أصبحت أكثر مرارة من ذي قبل. وعلى الرغم من كل ذلك، تسير مخططات الغزو الغربي الجديد والاستيلاء وابتلاع التقاليد الغربية والأجهزة الميكانيكية دون أي اعتبار أو مراعاة للروح والقوة التي تتحكم بهم بشكل مرض لهم.

أقلتنا سيارة من كربلاء وسرنا بمحاذاة حافة الصحراء متجهين نحو النجف التي وصلناها بعد ساعتين. كان الطقس ذلك الصباح رائعًا والطريق ممهدًا كأنه طاولة بلياردو، على طول الطريق لاحظنا وجود أربعة من الخانات المهجورة، وتنتشر على مسافات منتظمة بعضها من بعض، وحالتها المزرية تقود إلى حقيقة أن السيارات بدأت تحل محل الجمال وتزيحها من أعمال قوافل الحج المربحة. وشاهدنا على طول الطريق سيارات أكثر مما شاهدناه على طول الطريق السريع بين براغ وفيينا. ومع ذلك فنحن الآن في الشرق بكل تناقضاته، حيث نرى القديم والحديث وهما يحتكان معًا كما يتجاهلان بعضهما بعضًا في آن واحد: صفوف من الجِمال تمشي متثاقلة على الرمل وهي تحمل صفائح الغازولين، وعلى شفاهها، فيما يبدو، ترتسم ابتسامة راضية تجاه تلك المخترعات التي حرمتها من مهنة عريقة جديرة بالاحترام.

تُعد رؤية النجف، وأنت تقترب إليها من الصحراء، مشهدًا رائعًا مهيبًا، إذ يشاهد المرء من على مسافة عشرين ميلاً قبة مسجد علي (رضي الله عنه) الذهبية، وما يحيط بها من أشجار نخل فخمة قليلة العدد. ويوجد قرب المدينة آلاف من شواهد القبور من مؤمني الشيعة الذين نُقل رفاتهم ليدفن في النجف، أو للذين انتقلوا إليها من أراض بعيدة بغية قضاء أواخر سنوات عمرهم فيها. وهي كذلك أعمال مربحة للقائمين على المسجد فإذا رغبت فمن الممكن أن يتم دفنك مقابل مبلغ (٤٠٠) دولار بجانب علي (رضي الله عنه) في قدس الأقداس، ومقابل دفع نصف هذا المبلغ يتم دفنك في فناء المسجد، ومقابل عشرة دولارات يتم دفنك حول أسوار المدينة. كم من الابتزاز من الممكن تخيله في هذا العمل، ولكنه كان عملاً يمارس إبان الحكم التركي فاحت منه رائحة الفساد، وكان مثار فضيحة كبيرة.

بعد زيارة كربلاء والنجف، عدنا إلى الوراء قرابة (٣٠٠٠-٤٠٠٠) سنة مضت لنلقي نظرة على أنقاض بابل وكيش اللتين كانتا لعدة مرات عاصمتين فخمتين لإمبراطوريات مزدهرة، فبالمقابلة مع البقايا الحجرية المتكتلة الصلبة التي توجد في مصر، ليس هناك ما يمكن مشاهدته في العراق وذلك لأن الطوب اللبن هو عنصر البناء عبر الأزمان. عندما تصل سلالة معينة إلى نهايتها وتتدهور حضارتها، تأتي السلالة الجديدة وتبني حضارتها فوق المدينة المدمرة، وتستغل كل إمكاناتها لبناء حضارتها. وهكذا، مع انتقال

السلطة والثروة وتحوّلهما، بنيت مدينة فوق أخرى، سومرية فوق سامية، وسامية كلدانية فوق سومرية، وآشورية فوق كلدانية، وبابلية فوق آشورية، وفارسية فوق بابلية، وهكذا. وما زالت هذه العملية مستمرة حتى اليوم، حيث هناك قرى حديثة قرب بابل شيّدت من الطوب المجلوب من أنقاض بابل نفسها.

قضينا حقًّا يومًا ممتعًا في مدينة أور الكلدانية مع البرفسور وولي (Woolley) وزوجته من جامعة أكسفورد الذي يقوم بحفريات هناك منذ عدة سنوات. وأقدم سجل مؤرّخ تم اكتشافه في أور عبارة عن ختم شخصي أسطواني الشكل يعود تاريخه إلى نحو عام (٣٢٠٠ ق.م)، وهناك اكتشافات مهمة يعود تاريخها إلى قبل ذلك بمئات السنين. وهناك دليل لا يرقى إليه الشك عن حدوث فيضان هائل أعاد الحضارة السومرية مئات السنين إلى الوراء، فمن الذي يستطيع القول ما إذا كان هذا هو طوفان نوح أم لا؟ وحديثًا، عثر البرفسور مصادفة على حفرة معقدة للموتى تدل على ممارسة عادة تقديم القرابين البشرية، إذ إنها تحتوي على (٧٤) جثة، وهم ستة من الحرس والبقية من النساء، ومن ضمن الثماني والستين امرأة المدفونات، هناك إحدى وستون منهن تم دفنهن ومعهن نوع من الحلي الذهبية المتقنة الصنع تتكون من أقراط ذهبية ومشابك للرأس وعقود من اللازورد والعقيق والخرز الذهبية التي جرى تنسيقها بدقة وذوق حقيقي. كما وجدوا ثلاث قيثارات في تلك الحفرة، واحدة منها لها عشرة

أوتار مع قاعدة مرصعة بشكل رائع موضوع ومعها رأس ثور جميل مشغول بالذهب.

الاكتشاف الكبير العام الماضي كان جثمان الأمير ميس - كلام - دوغ (PrinceMess-Kalam-Dug)، الذي دفن ومعه كمية وافرة من الذهب والمجوهرات من ضمنها خوذة ذهبية ضخمة. وفي هذا العام، تم اكتشاف قبر طفلة صغيرة حيث كانت الحلي صغيرة الحجم، وقد تضمنت دبابيس شعر ذهبية وعقودًا وأقراطًا وكأسًا ذهبية فاخرة مملوءة بالنبيذ وموضوعة قرب شفاهها.

عبد السومريون القمر وجعلوه مذكّرًا في لغتهم مثل اللغة السلافية والألمانية، ويسمى المعبد الذي يعبدون فيه آلهتهم الزقورة (الزجورات، الذكورات) (Ziggurat) التي تقام على قاعدة ضخمة مبنية من أصلب أنواع الطوب اللبن الموجود في العراق. ومع أنها اندثرت منذ زمن بعيد، فقد كانت في الماضي منتصبة على ارتفاع (٢٠٠) قدم عن سطح الأرض. أما خطوط الأساسات التي ما زالت قائمة فتشبه بشكل لافت ناطحات السحاب لدينا، وبخاصة من ناحية أسطحها المتناسقة المكسوة بالألواح. وتبقى دلالات ورمزية الزقورة مثيرة للاهتمام، فالقاعدة كانت مطلية بالقار الأسود لتمثل العالم السفلي. ثم تأتي بعدها منصة من الحجر الرملي الأحمر اللون نظيرًا للسهل؛ ويعلو المنصة معبد راسخ أزرق اللون مثل معبد السماء في بكين (الصين)، رمزًا للسماء؛ وتعلو المعبد قبة ذهبية ترمز للشمس.

حقيقة أن السومريين بنوا الزقورات فوق مستوى السطح المجاور بكثير توحي بأن هؤلاء القوم أتوا أصلاً من الجبال، وعلاوة على ذلك، هناك دليل قوي يثبت أنهم قدموا عن طريق البحر، وأنه من المحتمل أن هناك علاقة ما كانت بين الحضارة السومرية وثقافات وادي السند في تلكم الأيام الخوالي. يشير ببساطة سجل سومري اكتشف حديثًا إلى أنهم قدموا واستوطنوا وطوروا كل فنون الحضارة، وهذا ليس ضربًا من المبالغة، طرقهم تم رصفها بالحجارة، وتخطيط منازلهم أفضل بكثير من منازل العراق الحالية. يشرب السومريون النبيذ والبيرة، وتم تبليط قبورهم بحجارة صلبة، ويدفن مع النساء كل أنواع مستحضرات التجميل؛ وكانت فنونهم مصطنعة ومتقنة مثلها مثل أي فنون عثر عليها منذ ذلك الوقت. كان السومريون يستوردون أحجارهم الكريمة والمعادن من مناطق بعيدة كالهند لعدم وجودها في العراق. وشهد نظام الري الخاص بالسومريين والبابليين إدخال تحسينات عليه منذ العصور القديمة، بل إن مصر القديمة استعارت دون قيد فنون الري من سومر، واستمرت على هذا الوضع حتى زار الإسكندر بابل ومات فيها، حينها قام المعماريون الإغريق بإحلال القنطرة الحقيقية الأصلية محل القنطرة الشكلية الإضافية الزائفة. وبالفعل حينما بلغت الحضارة السومرية أوجها بحلول عام (٢٥٠٠ ق.م)، كانت المبادئ المعمارية الثلاثة، وهي القنطرة أو القوس (arch)، والقبة (dome)، والعقد (vault)، قد شاع استخدامها في المباني السومرية.

قبل أن نغادر أور، يجب أن أخبرك أني مررت بالقرب من صديقنا القديم من الكتاب المقدس ألا وهو بلشاصر[٢٥] وقاعة الاحتفالات حيث رأى الكتابة على الجدار. وقد قامت أخته بتأسيس دير الناسكات وهو قائم حتى اليوم، فهناك سجلات موثقة الناسكات حفرت في ألواح الفخار، وأظهرت كيف كان الصوف يقسم على الناسكات، وكم كمية الملابس التي تقوم بصناعتها. كذلك كان هناك سجلات بحسابات دقيقة لعمليات البيع الشراء. وبالقرب من الدير، هناك مدرسة للأولاد حيث اكتشف لوح فخاري يشرح جدول الضرب حتى (٦٠) في (٦٠). وهناك لوح آخر يكشف عن طفل شقي استنفد طاقته في كتابة جملة بعينها أربعمئة مرة: بدأ الطفل الكتابة باهتمام وحسن نية، ولكنه بدأ حين وصل منتصف اللوحة يفقد اهتمامه تدريجيًّا حتى بلغ درجة الإهمال. ومن المحتمل أنه كان على عجلة من أمره في الانتهاء من الكتابة

(٢٥) هو حاكم بابل نيابة عن والده الملك البابلي نابونيد، وقد قتل عندما دخل الفرس المدينة عام ٥٣٩ ق.م. وقد ورد ذكره في سفر دانيال في التوراة أن بلشاصر عمل وليمة كبيرة من أجل تمجيد الآلهة البابلية دعا إليها الآلاف من النبلاء والأمراء وقاموا بشرب النبيذ في أواني الذهب والفضة التي غنمها نبوخذ نصر من أورشليم بعد دخوله إليها. تقول الرواية إنه رأى بعد الشرب كتابة غامضة وغير مفهومة على الجدار جعلته يرتعد ويخاف ويبحث عمن يفسر له هذه الكتابة. فقام باستدعاء الكهنة الذين لم يستطيعوا تفسير تلك الكتابة حتى قام دانيال بتفسيرها.

Rainer Albertz, *Israel in Exile: The History and Literature of the Sixth Century B.C.E.*, Society of Biblical Literature, 2003, p. 19.

ليشاهد مباراة في لعبة الكرة ذلك المساء[٢٦].

عليك الآن أن تتذكر جيدًا أن حجر الأساس لكل حضارة نشأت في بلاد الرافدين هو نظام ري فعال، ويشهد على مدى براعة السومريين والبابليين في استثمار هذا النظام، وما نتج عن ذلك من ثروة زراعية جعلت ذلك التوسع الذي شهدته تجارتهم الخارجية ممكنًا. فالعراق كله عبارة عن متاهة معقدة من قنوات الري التي يستغنى عنها ثم يعاد بناؤها من جديد وفقًا لازدهار الإمبراطوريات واضمحلالها وحسبما يطرأ على مسار مجاري أنهاره من تغييرات. فقد أحيا السير وليم كوكس[٢٧]، المهندس البريطاني الشهير لسد أسوان في مصر، نظريةً مثيرةً للاهتمام عن جنة عدن تقوم على حقيقة هندسية، وحدد موقعًا لعدن على نهر الفرات تمامًا إلى الغرب مباشرة من موقع بغداد الحالي.

والآن يقول سفر التكوين ٢: ٢٠ ما يأتي: "ثمة نهر كان ينساب من عدن ليسقي الجنة (الحديقة)، ومن هناك ينقسم إلى أربعة فروع". هذا هو ما حدث تمامًا لنهر الفرات في العصور القديمة، وبذلك أصبحت الزراعة المستمرة

(٢٦) يحاول جون كرين إضفاء جو من الدعابة في حديثه.

(٢٧) وليم ويلكوكس: ولد عام ١٨٥٢م في الهند. مهندس معماري إنجليزي شهير اقترح وصمم السد الأول لأسوان وأشرف على عدة مشروعات للري في جنوب إفريقيا والدولة العثمانية. توفي عام ١٩٣٢م في القاهرة.
https://www.britannica.com/biography/William-Willcocks

والمتواصلة للوادي كاملاً، دون خوف من فيضانات، متيسرة عن طريق التخلص المنتظم من مياه النهر المتدفقة. وفوق ذلك، فالعرب إلى يومنا هذا ينظرون إلى النخلة على أنها شجرة الحياة والكرمة على أنها شجرة المعرفة. وببساطة، فإن عدن تعني باللغة العربية الأرض المنبسطة، وعندما أكل أبونا آدم وأمنا حواء من شجرة المعرفة وفسدت الأمور بالنسبة لهما، أصبحت التربة ملحية، وهذا ما يحدث لها في العراق إذا لم تغسل باستمرار. وهذا هو السيف الملتهب الذي أخرجهم من جنة عدن.

عندما قاد تيمورلنك جحافله من المغول إلى العراق في القرن الرابع عشر الميلادي، أصبحت أرض هارون الرشيد الخيالية مقفرة، ومنذ ذلك الوقت، بذلت الدولة المترنحة ما بوسعها من جهد في سبيل البقاء دون نظام للري. ونظرًا لافتقارها إلى تنظيم صارم لإمداداته من المياه، كان من المحتم أن يبقى العراق قانعًا بوضعه كأرض يسودها الفقر والبؤس. فالدولة تحتاج إلى أموال ضخمة لإنجاز نظام ري فعال، ولكن رأس المال الأجنبي ما زال مترددًا في القدوم إليها بسبب وضعها السياسي الملتبس والغامض. وإضافة إلى ذلك، لم يُقدّم حتى اليوم خطة شاملة لتطوير أي جهة من هذه الناحية، وكانت النتيجة أن ترك أمر التنمية الزراعية، وهي في وضعها الحالي المزري، لجهود فردية لكبار ملاك الأراضي والمزارعين الأغنياء، وهي جهود من المحتم أنها ستفضي إلى وضع فوضوي في العراق. فما يحدث اليوم

هو استيراد آلاف المضخات إلى البلاد، وإتاحة نطاقات جديدة من الأرض للزراعة، ولكن ما هي النتيجة؟ فما حدث فعلاً هو أنه في خلال سنتين أو ثلاثة، ونتيجة لعدم ممارسة الطرق الصحيحة في غسل التربة بالماء والدورة الزراعية المناسبة أو المناوبة بين المحاصيل، أن تملحت التربة، وما زالت القطع الزراعية الجديدة تخضع لهذه المعاملة السيئة نفسها. ولذا، ما زال أمام العراق طريق طويل لحل مشكلة الإنتاج الأساسية الخاصة به.

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى البصرة، قدّم مجلس الوزراء في بغداد استقالته، وبصعوبة كبيرة استطاع الملك فيصل اقناع رئيس الوزراء عبدالمحسن بيك[٢٨] ووزرائه البقاء

(٢٨) عبدالمحسن بيك السعدون (١٨٧٩-١٩٢٩م): وزير عراقي، من أسرة يتصل نسبها بالأشراف، استوطن أحد أجدادها البصرة، ثم ذهب إلى المنتفق، فتأمر أحفاده على عشائرها. ولد عبدالمحسن في الناصرية (مركز لواء المنتفق)، وكان أبوه حاكمًا على اللواء وأميرًا لعشائره. وتعلم في مدرسة العشائر بالآستانة ثم في المدرسة الحربية، وتخرج ضابطًا في الجيش العثماني. وجعله السلطان عبدالحميد، مع أخ له اسمه عبدالكريم، مرافقين له. وظل عبدالمحسن في إستانبول بعد خلع السلطان عبدالحميد، فانتخب نائبًا عن (المنتفق) في مجلس النواب العثماني. وعاد إلى العراق في أثناء الحرب العالمية الأولى. تولى رئاسة الوزراء في عهد الملكية العراقية أربع مرات وهو ثاني من تولى هذا المنصب. ويعده العراقيون في ذلك الحين من الراغبين في التفاهم مع البريطانيين. مات منتحرًا. خير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٤/١٥١-١٥٢.

في مكاتبهم. وضع الوطنيون المتشددون الكثير من الضغط على المجموعة المعتدلة التي ترى ضرورة التعامل والتعاون مع حكومة الهند البريطانية. كان هناك عدد من النقاط التي كانت محلّاً للنزاع في تلك المدة منها: الشروط التي بموجبها يكون تولي إدارة السكك الحديدية، وضع القيادة العسكرية في أوقات الطوارئ، والتاريخ الذي تتقدم فيه العراق إلى عضوية عصبة الأمم... إلخ. إنه لمن المثير للإعجاب معرفة كيف أن بريطانيا العظمى الآن تدير العراق عبر نظام مفتشين إداريين قُللت سلطاتهم التنفيذية بموجب معاهدة ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ). وُضع هؤلاء المفتشين في كل مقاطعة وإقليم في طول البلاد وكذلك في كل الوزارات، وكان الوضع هو نفسه تمامًا داخل الجيش. وربما كان ذلك الإجراء طبيعيًّا بالنظر إلى حقيقة أن البريطانيين كانوا يسيطرون سيطرة كاملة على أسراب سلاح الجو الملكي البريطاني والشرطة العراقية، وأن مكتب المستعمرات في لندن أمر أن تكون هناك قيادة عسكرية موحدة في حالة نشوب حرب. ويمكن أيضًا أن نفهم شعور الامتعاض الذي خامر الطرف الآخر.

كان الشعور العام في البصرة وحولها مواليًا للبريطانيين، أكثر من العاصمة، وكان هناك سببان لهذا السلوك، الأول سياسي والثاني تجاري، من المهم هنا تكرار القول إن عموم الشعب العراقي يتخذ موقفًا وديًّا تجاه الحكم البريطاني[٢٩]،

(٢٩) هذه العبارة تصف رأي الكاتب الذي كان زائرًا للعراق ولم يلتق كل أطياف الشعب العراقي حيث لم تتعد زيارته للعراق ٢٠ يومًا.

ولكن هناك حافز إضافي في القسم الجنوبي منه يتمثل في شعورهم بما تقدمه لهم أسراب سلاح الجو الملكي البريطاني المنوط بها مراقبة الحدود المفتوحة، من حماية قوية ضد هجمات البدو الوهابيين القادمين من الصحراء حيال هذا الوضع. ومرة أخرى، كانت الدوائر التجارية، المحلية والأوروبية، في البصرة تفضل الحكم البريطاني بقوة، وذلك بسبب خوفهم من تأثر التجارة والأعمال إذا ما تولى الحكم نظام حكومي أهلي لا خبرة له، وذلك عقب إنزال العلم البريطاني. وفوق ذلك كله، لم يكن الرأي العام في البصرة قد بلغ به الفساد والتحريف من لعنة المؤججين من الأفندية مثلما حدث في بغداد. وبشكل عام، الأفندية تعني السادة، وهو لقب محترم في المشرق بشكل كبير، ولكنه في الوقت نفسه يُعد بلاءً كبيرًا في الدول الواقعة إلى الشرق من قناة السويس وجنوب القسطنطينية، حيث يُنظر إليه كمتملق ذي سعة ومبتز للمال بطرق غير مشروعة. ويداهن من يتحدث معهم بلغة أجنبية ليفوز بحظوة لدى السلطات الموجودة أيًّا كانت، ليواصل أعماله العدوانية.

نعود للحديث عن أنفسنا هنا في البصرة، فقد كان مضيفنا السيد هوبر (Hopper) وهو مدير إنجليزي لهيلز برذرز[٣٠] (Hills Brothers) وهي شركة أمريكية قديمة تقوم

(٣٠) شركة أمريكية تأسست في بروكلين نيويورك عام ١٨٩٣م متخذة التجارة بالتمور من منطقة الخليج العربي نشاطًا لها، ومع توسع التجارة قامت بافتتاح عدد من الفروع في الولايات المتحدة وتأسيس فرع لها في البصرة حتى تنهي الاعتماد على الشركات البريطانية. =

بأعمال تجارية ضخمة لتصدير التمور من العراق والخليج العربي إلى مدينة نيويورك. يعد شهر يناير موسم ركود في تجارة التمور إذ إن كل عمليات جني التمور وتعبئتها تكون في أواخر الصيف وأوائل الخريف. تقوم هيلز برذرز بأعمال تجارة الجملة في التمور التي تباع في الولايات المتحدة بأسعار التجزئة وذلك بسعر (٢٥) سنت للرطل الواحد وأقل. كان هناك عاملان مهمان يمنعان الشركة من تطوير جانب جودة المنتج في أعمالهم. الأول، أنه كان هناك مصاعب كبيرة في إقناع المزارعين بالطرق العلمية الحديثة من أجل تطوير الأنواع والقضاء على الأمراض والديدان. ومن أجل هذا لم يكن إلا نحو عشرين إلى خمسة وعشرين بالمائة من التمر المجني صالح للتصدير، وهذه الخسارة الفادحة تعني أن المزارعين المحليين يحصلون على (٢) سنت للرطل الواحد. يعلم السيد هوبر أهمية الأبحاث العلمية في هذا المجال، كما تفعل وزارة الزراعة في بلادنا بهذا الصدد، وقد بدأ هوبر العمل في مزرعة نموذجية للنخيل أنشأها حديثًا بالقرب من البصرة.

كانت عقبة البعد عن السوق إحدى العوامل التي تعمل ضد تطوير الصادرات من تمور عالية الجودة، ذلك أن التمر

= وقد أطلقت عليه اسم (بيت هيلز) ويقع على شط النهر. كانت العلب الخاصة بالشركة تتم تعبئتها في البصرة وشحنها للولايات المتحدة بحجم رطل ورطلين.

James L. Gelvin, Nile Green, *Global Muslims in the Age of Steam and Print*, University of California Press, 2014, p. 168.

ذا الجودة العالية يفسد بسرعة. وعلى الرغم من وجود خط خاص من سفن الشحن المزودة بالمبردات، فإن شركة هيلز برذرز تخاطر كثيرًا بشحن آلاف الأرطال من التمور إلى نيويورك.

وبالمناسبة كانت شركة هيلز برذرز، هي الشركة التي أدخلت العربات من ماركة شيفروليه (Chevrolet) وبيوك (Buick) إلى العراق، واحتكروا السوق المحلي لصالح شركة جنرال موتورز الأمريكية، ومع ذلك، دب الخلاف في العام الماضي بين الطرفين، حصلت فيه شركة هيلز برذرز على صفقة غير مرضية. وقد وجدتُ مصادفة في أماكن بيع العربات في أوروبا والشرق الأوسط أن شركة جنرال موتورز تتخلص من موزعي عرباتها بشكل غير لائق. لا أعرف على وجه الخصوص ما سياستها عدا التخلص من أكبر عدد من عرباتها في هذه الأسواق، ولكن ما ترتب على هذه السياسة من نتائج كانت في جميع الأحوال هي نفسها: أن سمعة جنرال موتورز باتت سيئة في عالم التجارة، وهذا الأمر يدعو للشفقة، إذ إن الشرق كله يريد شراء السيارات الأمريكية، وربما كان هذا الشعور ناتجًا من عدم ثقتهم بأوربا وجميع أعمالها، وهذا أمر شائع بين طبقات الشعب ذات المكانة والثراء.

حان الوقت لنختم قصتنا القصيرة لرحلتنا الجميلة عبر أراضي بلاد ما بين النهرين. كانت مسألة العراق يجري تناولها كأنجح تجربة في نظام الانتداب في مقر عصبة الأمم في جنيف، وهذا من الممكن عده صحيحًا باستثناء

تجربة فلسطين، إذ قام البريطانيون بجهد مقدر في الإدارة وتعزيز السلام. ولكن من المؤسف أن المشاعر السياسية ضد بريطانيا كانت قوية في دوائر معينة، بحيث لا يمكن إغفال تأثيرها على الإطلاق، بعد عدة أسابيع سيصل السيد جلبيرت كلايتون[٣١] (Gilbert Clayton) إلى بغداد ليتسلم سلطاته مندوبًا ساميًا في العراق، حيث أتت مدة الأربع سنوات الخاصة بالسيد هنري دوبس (Henry Dobbs) على نهايتها. كان السيد بيرسي كوكس (Percy Cox) أول مندوب سامي في العراق، وهو الذي فاوض المعاهدة الأصلية في عام ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ) التي تحدد العلاقة بين سلطة الانتداب ومنطقة الانتداب. وهؤلاء الرجال أصحاب الشخصيات الاستثنائية لديهم خبرة طويلة في شؤون الشرق الأدنى السياسية والإدارية. على قدر ما كان المندوبان السابقان جيدين إلا أنهما لم يُظهرا قدرة إدارية كافية للبحث عن حل جدي للمشكلة. ولكي نناقش هذه النقطة بشكل أفضل سأعود للوراء لأرسم الأوضاع التي جعلت البريطانيين يحكمون العراق بعد الحرب.

(٣١) رجل دولة وإداري في المستعمرات البريطانية في الشرق الأوسط وضابط مخابرات. عمل في مفاوضات ترسيم الحدود بين دول المشرق العربي. ولد عام ١٨٧٥م، وترقى في المناصب في مستعمرات بريطانيا في الشرق الأوسط. في االمدة بين ١٩٢٥-١٩٢٧م، كان مبعوثًا للمفاوضات بين مملكة نجد والحجاز وملحقاتها (المملكة العربية السعودية فيما بعد) وبريطانيا حيث قام بمفاوضة اتفاقيتي بحرة وحدة وتوقيع معاهدة جدة. مات عام ١٩٢٩م.
https://www.britannica.com/biography/Gilbert-Clayton

كانت بريطانيا العظمى هي التي قامت، خلال الحرب، بتنظيم الجهد العسكري لطرد العثمانيين من الجزيرة العربية كلها[٣٢] وولايات الحدود كفلسطين وسوريا وشرق الأردن والعراق. ومع ذلك كان نجاح هذه الحملة يعتمد على قُدرة الحلفاء في الحصول على تعاون القبائل العربية الذين كانوا كلهم باختلاف درجات ولائهم وحماسهم تحت راية الملك الحسين شريف مكة المكرمة وأبنائه ولي العهد الأمير علي، والملك فيصل، وملك شرق الأردن عبدالله[٣٣] إلخ. ولضمان تعاون وصداقة القوى العربية، فقد استخدمت كل أنواع الوعود الرسمية وغير الرسمية التي كانت تتمحور في معظمها حول إقامة دولة عربية مستقلة. ربما كان أكثرها تأثيرًا تلك المساعدات التي قُدمت للشريف حسين حاكم الحجاز وابن سعود حاكم نجد وكل الشيوخ على طول البلاد العربية وعرضها. لقد جرى تقدير إلى درجة لا بأس بها من الدقة، على سبيل المثال، أن الكولونيل لورانس ومساعديه قدموا ما يقابل خمس دولارات لكل رجل وامرأة وطفل في المنطقة.

كانت أول ضربة بعد الحرب في وجه حلم العرب عندما منعت فرنسا فيصلاً من تأسيس دولة في سوريا، تلا ذلك المغامرة اليونانية في الأناضول، وهي من تخطيط

(٣٢) لم يكن للعثمانيين سلطة بالبلاد الخاضعة لحكم الملك عبدالعزيز خلال تلك الفترة (نجد والأحساء).

(٣٣) لم يكن الشريف عبدالله ملكًا في ذلك الوقت، بل كان لقبه الرسمي الأمير عبدالله بن الحسين واسم دولته هو إمارة شرق الأردن.

فينيزيلوس[٣٤] (Venizelos) التي كانت مدعمة سياسيًّا من لويد جورج وماليًّا من باسيل زاخاروف[٣٥] (Basil Zakharoff) الرأسمالي الشهير ذو الأصول الشامية. بعد سنين من الحرب وسقوط إمبراطوريتها، استطاعت تركيا بقيادة مصطفى كمال من طرد اليونانيين من الأناضول في صيف ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ)، وفي تلك الأثناء، كانت بريطانيا العظمى تواجه قلاقل خطيرة في مصر والهند، تفاقمت أكثر بشواهد عدائية من قِبل بعض القوى الأوروبية. وفي هذا الوقت تحديدًا، وكأنما تدفعه يد غامضة، اصطف الشرق، بضعفه وضجيجه، ضد الأوروبيين. ولا بد أن لويد جورج، الزعيم الحذر بعيد النظر، كان لديه إحساس داخلي بهذا التغير المتطرف في الموقف، فقام في عام ١٩٢١م (١٣٣٩هـ)، بشقلبة سياسية مبهرة، وذلك بإقناعه

(٣٤) إلفثيريوس فينيزيلوس: سياسي يوناني، ولد عام ١٨٦٤م ويعد من أبرز الزعماء اليونانيين في أوائل القرن العشرين. تولى رئاسة الوزراء عدة مرات في عهدي الملكية والجمهورية، وأيد دخول اليونان إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وقاد فكرة توسع اليونان في الأناضول. توفي عام ١٩٣٦م. **موسوعة بريتانيكا**، مادة إلفثيريوس فينيزيلوس،
https://www.britannica.com/biography/Eleutherios-Venizelos

(٣٥) باسيل زاخاروف: ولد في الأناضول عام ١٨٤٩م، تاجر أسلحة شهير في ذلك الوقت وقد قام بالبيع لعدة دول خصوصًا الدولة العثمانية واليونان وروسيا. كان للويد جورج دور في حصوله على لقب فارس من بريطانيا لخدماته خلال الحرب العالمية الأولى.
Robert Neumann, *Zaharoff the Armaments King*, translated by R. T. Clark, Union Readers Limited, London, 1938.

الحكومة البريطانية لابتلاع خطة الخلاص العربية التي رسمها الكولونيل لورانس وغروترد بيل. وبناءً عليه، أُحضر فيصل إلى بغداد ومُنح التاج، لم يكن التاج الذي كان يريد، ولكنه يظل تاجًا عربيًّا حتى وإن كان قد صنع في إنجلترا. والمأساة هنا أنه على الرغم من سحره وشخصيته الرائعة، فإن فيصلاً ظل ملكًا غريبًا على العراق.

ومع ذلك يبقى برنامج لورانس وغروترد بيل في جوهره صحيحًا، وكان فيصل ملكًا جيدًا ولكنه ليس قويًّا. وقد كان الإخفاق في التجربة العراقية – في رأيي – يعود بشكل كبير إلى أن الدولة الجديدة قامت على رمال السادة (الأفندية) المتحركة. كان سكان العراق في معظمهم من القبائل والبادية، وكانت الحياة الثقافية المدنية، والإجراءات البرلمانية هناك مستوردة وغريبة. وعليه فإن السادة (الأفندية) الراغبين في الحصول على وظائف حكومية لا يمثلون أي شيء أو أي شخص إذ إن النبض الرئيس للثقافة العربية أو الحكومة يوجد في العادات والتقاليد القبلية. وفقًا لفان ريس – الذي يملك رأي مجرِّب في هذا الشأن – أنه كان من العملي بعد الحرب التريث والنظرة البعيدة، وبناء اتحاد من القبائل بشكل تدريجي في العراق، وهو الأمر الوحيد الذي كان بإمكانه توفير أساس صحيح ومعافى تقوم عليه الدولة الجديدة. وفعلاً، فهذا النهج يعطي تجربة جريئة كان من الممكن أن تكون أسهل وأرخص من التي تم تطبيقها الآن.

كان هناك نحو خمس وعشرين قبيلة في العراق، كلهم

كانوا تحت حكم شيخ واحد لديه سلطات مطلقة، ولكن من الممكن إبعاده في أي وقت إذا أظهر عجزًا أو ضعفًا. إن نظام حكم فضفاض كهذا، يناسب على نحو رائع الأوضاع المحلية وطبائع الأهالي وأمزجتهم، ويمكن بالطبع أن يكون في أفضل حالاته، من أكثر نظم الحكم كفاءة وفعالية في العالم. وفي كل الحالات، يعد هذا النظام هو النظام الوحيد الذي عرفته العراق، وكان البريطانيون قد فعلوا عملاً مرضيًا لو أنهم قاموا ببناء الدولة الجديدة من الأسفل إلى الأعلى، وليس العكس، في حالة تبنيهم الوحدة القبلية نظامًا للحكم في العراق، كان بوسعهم وضع أربعة ضباط مع كل قبيلة، يمنح الضابط السياسي المسؤول منهم وظائف بسيطة كأن تكون هناك، على سبيل المثال، مؤتمرات دورية تحت إشراف البريطانيين وبحضور شيوخ القبائل، هدفها النهائي هو إيجاد حل لمشكلة السلطة، وأن يكون لكل قبيلة مراقب مالي لمراجعة الضرائب الخاصة بها. وأن يكون عمل الشرطة هو نفسه عمل الشرطي حاليًّا، وأن يكون الضابط الرابع مهندسًا يقوم بتنظيم عمليات الاتصال والري في المقام الأول. وبإمكانه حراسة جسور الري وفي حوزته رشاش آلي واحد، ويقطع مدد الماء في حالة حدوث شغب أو مشكلة من قبيلة بعينها أو من عشيرة تابعة لها. وسيكون هناك عدد من أسراب الطائرات الخاصة بالقوات الجوية الملكية الموجودة التي ستقوم بحماية الحدود.

هذا يكفي بشأن ترتيبات الحكم المثالية، إذ لا مجال للعودة

إليها بسبب أن التجربة العراقية انطلقت في المسار الخطأ منذ البداية، ومستقبل الدولة الجديدة متعلق بسؤالين: الأول هل ستخرج بريطانيا العظمى من العراق؟ وإن فعلت ذلك، ما شروطها؟ أنا واثق أن إنجلترا ستنسحب من العراق يومًا ما، ولكن تأكد أن البريطانيين عباقرة في الانسحاب من دولة ما ولكنهم يسيطرون على زمام الأمور فيها، كما هو الحال في مصر هذه الأيام. أما بالنسبة لشروط الانسحاب فهناك اعتبار مهم، وهو أنه من السذاجة القول إن إنجلترا ستبقى في العراق من أجل ضمان مستقبل مصالحها في الزيت الموجود في الموصل، فمن الممكن حمايتها بأساليب كثيرة غير الاحتلال والضم.

ما هو – على سبيل المثال – الوضع الإستراتيجي العالمي الخاص بالعراق من وجهة نظر البريطانيين؛ أوضحت إنجلترا بشكل واضح استعدادها لاحتلال إفريقيا وآسيا من أجل حماية قناة السويس. وقد قامت قبل الحرب باستعراض كل عضلاتها من أجل منع ألمانيا وروسيا من مد مجال تأثيرهما إلى منطقة الخليج العربي. اليوم، هذان التهديدان المفترضان للأمن والمواصلات الإمبراطورية زالا وتحولا إلى شيء غير موجود، ولذلك يجب أن ننظر إلى العراق بشكل أفضل كي نتعرف على عناصر الخطر، لنبدأ بهذه الحقيقة، الوطنيون الفرس بقيادة رضا شاه ينظرون بعيون حاسدة لبلاد ما بين النهرين متذكرين أيامهم الخوالي عندما كانت فارس عشيقة بلا منازع على ساحلي الخليج، كذلك فإن الوهابيين تحت

حكم ابن سعود جاهزون للزحف إلى البصرة وبغداد في اللحظة التي تغادر فيها طائرات القوات الجوية الملكية[٣٦]. ثالثًا، تركيا ما زالت تؤمل في استعادة حقول الزيت الغنية في الموصل، وعلى أي حال فمن الواضح أن إنجلترا لا تتطلع إلى تضخم هذه القوى الثلاث ولا سيما أن سياستها الحالية في آسيا هي السلام والسلام بأي ثمن.

أيضًا، تعرف إنجلترا أن لديها التزامًا أخلاقيًّا بسبب الانتداب وأن هيبتها العالمية لا تتحمل أن تقوم بالانسحاب من العراق وترك ذلك الجزء من الشرق في فوضى وتشتت. ووضعها في العراق صعب عليها ولكن هناك في الوطن، إنجلترا، سأم الرأي العام حتى الموت من سماع قصة محنة

(٣٦) لم يكن الملك عبدالعزيز طوال سنوات حكمه قد ابتدأ أحدًا بقتال أو طمع في حكم أحد أو تدخل في شؤونه، بل كان له دور كبير في بث الأمن والاستقرار في كل المناطق المحيطة بدولته. فمنذ أن استعاد الملك عبدالعزيز الأحساء إلى حكم الدولة السعودية وطرد العثمانيين منها حرص على علاقة متميزة مع جيرانه وبخاصة بريطانيا التي كانت القوة الكبرى في المنطقة، وبعد أن بدأت الحرب العالمية الأولى نجد أن الملك عبدالعزيز اتخذ جانب الحياد وزار البصرة زيارة ودية، وبعد انتهاء الحرب وتحديدًا في عام ١٩٢٢م نجد أنه اتفق مع البريطانيين الذين كانوا القوة المسيطرة في العراق وتم توقيع معاهدة العقير التي حددت الحدود بين المملكة النجدية آنذاك وحاكمها الملك عبدالعزيز سلطان نجد وتوابعها ومملكة العراق. كما يثبت ذلك معاهدة بحرة عام ١٩٢٥م التي اهتم فيها الملك عبدالعزيز بالتأكيد على صيانة الحدود وحمايتها بين البلدين. وأخيرًا، اللقاء التاريخي بين الملك عبدالعزيز والملك فيصل ملك العراق على ظهر الباخرة الإنجليزية لوبين عام ١٩٣٠م.

عبء الرجل الأبيض. هذا الفكر العاطفي كان مقبولاً في الأيام الخوالي قبل الحرب حينما كانت الشعوب المستعمرة في آسيا في سبات عميق مسالم وباطمئنان واضح، ولكن اليوم كل آسيا متوهجة ومتشوقة للأحلام الشيقة بالنهضة والقومية.

ولعل هناك خلاصة لهذا الأمر في العراق، ولكنه إن كان كذلك، فإنني لم أجده. وهكذا فبكل سعادة بالغة وأطيب التحايا أترككم في الجو. ولعله كان من الأفضل ألا أزور بلاد ما بين النهرين، ولكنها مع ذلك كانت رحلة رائعة وعلى البساط السحري.

البصرة، العراق، ٢٢ يناير ١٩٢٩م (١١ شعبان ١٣٤٧هـ):

في أجواء ممطرة، غادرنا البصرة يوم أمس الساعة الحادية عشرة صباحًا متوجهين إلى الكويت في سيارتين: كانت السيارة الأولى تقل والدي والراحل السيد هنري بيلكرت (Henry Bilkert)؛ والثانية كانت تقلني أنا وجونسون. والكويت التي تقع على بُعد مئة وخمسة عشر ميلاً، هي محمية بريطانية صغيرة يحكمها شيخ محلي وتقع في الساحل الغربي من الخليج العربي قريبًا من مصايد اللؤلؤ الشهيرة. خلال الخمسة عشر ميلاً الأولى باتجاه الزبير، وهي قرية قوافل جميلة معزولة منذ العام الماضي عن نجد بسبب غارات الإخوان. كانت حالة الطريق سيئة إلى حد ما، ولكن العربتين من ماركة شيفروليه عبرت الطين بشكل قوي. ومن هناك فصاعدًا بات الدرب الصحراوي أفضل حالاً وثباتًا مع هطول المطر.

توقفنا أمام كوخ الجمارك العراقية في الزبير قرب الظهر، وعلى الرغم من أننا كنا نحمل رسالة قصيرة من كوبر (Cooper) المسؤول عن الجمارك، لم نجد هناك أحدًا من الموظفين يقوم بالإجراءات الجمركية والسماح لنا بدخول العراق، بحثنا عنهم في السوق، وأخيرًا، وبعد مُضي نصف ساعة من الزمن جاء ضابط الجوازات، وبناءً على رسالة كوبر اجتزنا الجمارك دون إجراء فحص لأمتعتنا، وسرعان ما انطلقنا بعد ذلك في الصحراء التي بدت مخضرة بسبب الأمطار التي هطلت مؤخرًا.

كنا نتحدث، ونحن نتقدم في طريقنا (وكنت مع والدي وبيلكرت في سيارة واحدة)، عن الصحراء وأهلها الشجعان الأقوياء، والتجارة في بلدة الزبير، التي سُميت بذلك نسبةً إلى أحد صحابة محمد (ﷺ) الذي قتل في معركة ودفن هناك في المسجد[٣٧]، ترتكز على منتجات البدو الذين يأتون هنا ومعهم الأغنام والسمن (شحوم الماشية الصافية)[٣٨] في فصل الربيع لمقايضتها لتلبية حاجاتهم المتواضعة من ضروريات الحياة. يعد البدوي شخصية صلبة حين يتعلق الأمر بشرف القبيلة، ولكن حق الحصول على مرعى حر

(٣٧) لم يدفن الزبير رضي الله عنه في المسجد الذي يحمل اسمه بل دفن في الصحراء خارج البصرة وبني ضريح على قبره فيما بعد.

(٣٨) السمن لا يصنع من شحوم الماشية، بل من زبد الأغنام الذي يستخرج من الحليب بعد خضه، وبعد ذلك يجمع هذا الزبد ويغلى على النار، ومن ثم يستخرج السمن ولعله يقصد الودك المستخرج من شحوم الأغنام.

هو القانون القديم في الصحراء، عندما تكون أمطار الشتاء قليلة تُحرّك القبائل قطعانها للبحث عن مراع أفضل، وهذا التقليد يؤدي إلى غارات وحالات نهب متكررة؛ ونظرًا لأن أمطار هذا الشهر كانت جيدة على طول الحدود مع نجد فلا أحد يعتقد بأن غارات العام الماضي ستتكرر هذه السنة.

توقفنا عند الساعة الثانية مساءً لنصف ساعة لتناول طعام الغداء، وعندما انتهينا من تناول الساندويتشات والقهوة والتمر، وصل أحد رجال القبائل العراقية للحظة ممتطيًا جواده وأخبرنا بأنه يقود قطيعه إلى مكان آمن بسبب إغارات الإخوان على الحدود. وقد سألناه إن كان قد رأى هذه الغارات بنفسه ولكنه أجاب بالنفي، وحذرنا من الاستمرار بالذهاب للكويت، وقد سمعنا أمامنا عدة طلقات نارية بعيدة جهة اليسار واعتقدنا أن رجال القبائل يحذرون بعضهم بعضًا، تلفظ بيلكرت بهذا الوصف: "إنه من غير الجيد أن نفسد رحلتنا بسبب إنذار خاطئ". وعندما سألت بيلكرت عن أي نوع من المقاتلين هؤلاء الغزاة البدو، فأخبرني أنهم يملكون بنادق حديثة وأنهم رماة مهرة، قررنا أن نستمر في رحلتنا.

انطلقنا في طريقنا بعد عشر دقائق، قابلتنا سيارة فورد مليئة بمجموعة من العرب المنفعلين. أخبر هؤلاء بيلكرت – وهو منصّر تابع للكنيسة الإصلاحية الهولندية في العراق والخليج العربي لمدة إحدى عشر سنة أن الإخوان يهاجمون الرعاة وأصحاب المواشي العراقيين وحثونا على العودة. هؤلاء العرب غادروا الزبير في الصباح لينذروا العراقيين

بسحب مواشيهم من منطقة الحدود، علمنا لاحقًا أن هؤلاء تلقوا برقية وافدة من الكويت تقول بأن الإخوان يتجهون شمالاً. وعليه فإن تهاون المسؤولين في الزبير هو الذي جعلنا نعبر دون تحذير بعد ثلاث ساعات من البلاغ.

وفي هذه المرحلة، سمعنا عدة طلقات نارية من الاتجاه نفسه، ولكننا صممنا على الاستمرار في رحلتنا. وفي طريقنا، شاهدنا أعدادًا كبيرة من قطعان الماشية تساق باتجاه الشمال بأقصى سرعة ولم يأت أي من الرعاة إلى مسافة نستطيع من خلالها التحدث إليه ولكن اثنين أو ثلاثة منهم أشاروا إلينا بإشارات تحذيرية. ولقد كنت مع جونسون في السيارة الثانية في حين أن أبي وبيلكرت كانا في السيارة الأولى. وخلال دقائق مررنا بقوافل من الحمير والجمال مع مجموعات من الرعاة الراكبين في الخلف. وحتى الآن لم يكن هناك أي علامة على الجماعة الغازية ولا حتى إشارة إلى قتال جارٍ حتى تلك اللحظة. ولأننا كنّا على بُعد خمسين ميلاً من البصرة آنذاك، بدا لنا أننا قد عبرنا ذلك الشريط الضيق من نجد الذي يقع بين العراق والكويت، والذي يعطي ابن سعود منفذًا محتملاً على الخليج العربي عبر البحيث (Bahaith)[٣٩].

قبيل الساعة الثالثة، عبرنا تلة صغيرة من الرمال قرب تلال الحمر في الكويت، وقرب الطريق بنحو (٣٠٠) ياردة من

(٣٩) وردت في النص (Bahaith) والصحيح (Buhayth Al) ويقابلها من الحدود العراقية أم قصر.

ناحية اليسار، شاهدنا مجموعة من الفرسان يبلغ عددهم اثني عشر فارسًا حسبناهم من رجال القبائل الصديقة. قام أولئك في الحال بإطلاق النار علينا، وقد كان سائق السيارة - الذي تعامل مع الموقف بأعصاب باردة - قد رأى العصابة[٤٠] البيضاء التي يلبسها الإخوان الوهابيون[٤١]، فانحرف بسياراتنا يمينًا بعد أن سمعنا نصف دزينة من الرصاص تنطلق تجاهنا. في ذلك الوقت، انظم المهاجمون بعضهم لبعض واستمروا في ملاحقتنا. قبل أن نصبح خارج مدى طلقاتهم (كان الرمل خارج الطريق ناعمًا جدًّا)، قاموا بإطلاق نحو (٣٠) طلقة علينا، فلو حدث أن ترجل هؤلاء من مطاياهم، وصوبوا بنادقهم بدقة نحونا، لكان جميعنا الآن في عداد الموتى، وهذا هو قانون الصحراء.

عندما أصبحت سرعتنا خمسين ميلاً في الساعة، قال بيلكرت لوالدي بأنه قد أُصيب (جُرح)، ولكننا أسرعنا أكثر لمدة عشر دقائق حتى وصلنا إلى مجموعة صديقة كانوا يصرخون فرحًا بهروبنا. عندما توقفنا وفتحت باب سيارة والدي، قال بيلكرت بهدوء: "أنا مصاب"، أعطيناه دفعتين من مشروب البراندي وعندها قال: "إن إصابتي في الكتف، أنا مشلول لا أستطيع الحركة"، قمت أنا وجونسون بتغيير مكانه

(٤٠) يلبس الإخوان عصابة أو عمامة بيضاء على الشماغ، لها الدور نفسه الذي يقوم به العقال لتثبيت الشماغ على الرأس، ويسميها البدو "المعم".

(٤١) كانت تلك الفئة من الفئات المتمردة على الملك عبدالعزيز ولم يكن راضياً عن أفعالها.

لكي نعطيه مزيدًا من الراحة، أخرجنا وسادة هوائية ووضعنا بطانيتين حوله، وقال: "أنا آسف يا سيد كرين أني وضعتك في هذه الفوضى"، وقال بصوت محشرج: "انطلقوا، انطلقوا".

كان بيلكرت قلقًا بشأن حالته منذ البداية وتوسّل والدي إليه أن يعود إلى الزبير ليجري علاجه على يد الدكتور ماكريتشي (MacRitchie). "إذا مت" قالها بابتسامة باهتة "أوصلوا حبي إلى زوجتي وأطفالي" لقد كنا في سباق مع الموت ونتوقف كل عشر دقائق ليشرب البراندي، كان الرجل الضعيف يغرق بسرعة ولكن شكرًا لشلله إذ إنه لا يحس بالألم.

عندما توقفنا للمرة الثالثة، كان من الواضح أنه لن ينجو، عند ذاك أخذت والدي إلى السيارة الثانية ليكون معي، وحتى يتمكن جونسون من تقديم كل الرعاية لبيلكرت. وكنت قد أخبرت جونسون، في محطة التوقف الثانية، أني شاهدت سربًا من طائرات السلاح الجوي الملكي القادمة من الشعيبة[٤٢] وهي تمر بيننا وبين جبل سنام، كانت آخر كلمات بيلكرت لجونسون هي: "أعيدوني في إحدى هذه الطائرات"، في محطة التوقف الخامسة لم يعد بيلكرت قادرًا على شرب أي قدر من البراندي وتوفي في الساعة الرابعة.

توقفنا في الزبير بعد نحو عشرين دقيقة وذهبنا مباشرة إلى الطبيب، وقد كان في البصرة ذلك اليوم، لذلك انطلقنا

(٤٢) قرية في العراق، محافظة البصرة، جرت فيها معارك مهمة (١٩١٤-١٩١٨م) وكانت مركزًا عسكريًّا مهمًّا في الحرب العالمية الثانية وبها قاعدة جوية. بشير يوسف فرنسيس، **موسوعة المدن والمواقع في العراق**، ٨٢٤/٢.

إلى البصرة لنصل قبل حلول الظلام، وطلبنا من موظف الجمارك مهاتفة فان إس ليخبره بأننا سنتوجه مباشرة إلى مستشفى ماود (Maude Hospital). وصلنا هناك قرابة الساعة الخامسة والنصف ووجدنا كلاً من فان هيس والدكتور بوري (Borrie) ينتظراننا عند البوابة. ذهب والدي إلى منزل السيد هوبر من شركة هيلز برذرز وبقيت أنا أنتظر السيدة بيلكرت.

بينما نحن ننتظر، أخبرت فان هيس قصة المأساة التي حدثت، وقد كان مجروحًا بالفقد المفاجئ لصديقه وزميله. كان فان هيس منصّرًا في المنطقة منذ عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) وكان مرشدنا المميز في العراق حتى وصلنا البصرة قبل ثلاثة أيام. كان فان هيس متماسكًا تحت الضغط، ولكنه أخيرًا انفجر قائلاً: "اللعنة يا كرين، تمنيت أنني ذهبت معكم بدلاً من بيلكرت، أتعلم أن هناك وقتًا تكون الشجاعة طيشًا"، وبعدها بدأ بالحديث معي عن صفات الرجل النبيل الذي أعطى حياته للعرب.

كانت الساعة السابعة تقريبًا حينما وصلت السيدة بيلكرت إلى المستشفى مصحوبة بالسيدة فان هيس التي همست إلي قائلة: "السيدة بيلكرت تريد أن تعرف منك بدقة ماذا حدث"، وخلال ربع ساعة رويت أحداث ذلك اليوم. وقد كان سؤالها الوحيد: "ألم تفكروا في العودة عندما جرى تحذيركم"، فقد كانت شُجاعة بشكل مذهل، وصابرة ومتماسكة خلال المحنة كلها، وقد ساعدتها تلك الروح الجميلة على الصمود خلال

مراسم الدفن عندما خرجت البصرة بأكملها لتودع باحترام وتقدير زوجها الراحل إلى مثواه الأخير[٤٣].

بقيت كلمات قليلة أضيفها لتوضيح الفشل الكامل للاستخبارات المحلية فيما يخص هذه الحادثة المؤلمة والمحزنة، فعلى سبيل المثال، أخبرني جاردين، مفتش البصرة الإداري غير المكترث بما حدث، بالأمس في المستشفى، أن سرب الطائرات أقلع بمجرد سماع شائعة الغارة، تلك الطائرات التي شاهدناها في طريق العودة قبيل موت بيلكرت، أخفقت في تحديد موقع المجموعة المهاجمة بشكل كامل، ووفقًا للاتفاق الذي جرى مع ابن سعود، فلم يعد في مقدور الطائرات اليوم ملاحقة (المهاجمين) عبر الحدود ومطاردتهم إلى داخل الإقليم الذي أتوا منه. وحدث أيضًا أن سُمح للكولونيل واتسون (Watson)، المفتش الإداري بالكويت، الذي كان حينذاك في زيارة للكولونيل مور (Moore)، بأن ينطلق في طريق العودة إلى البصرة في الساعة الحادية عشرة من صباح الأمس، وهو على جهل تام بما حدث، ليقع في الساعة الحادية والأربعين دقيقة تحت وابل من نحو ثلاثين طلقة أطلقها المغيرون تجاهه، ولكنه استطاع الهرب والعودة إلى الكويت بسلام. وفي مساء الأمس في الكويت، تلقى الكولونيل سبع برقيات عما حدث لنا، وقد أوردت إحدى تلك البرقيات بأن والدي قد قتل، وفي أخرى أن المقتول هو شخصي، وهكذا استمرت الأخبار غير الصحيحة حتى حكت

(٤٣) من المبالغة القول بأن البصرة بأكملها خرجت لتأبين السيد بيلكرت.

البرقية الأخيرة حقيقة ما حدث.

حصلنا على التفاصيل الصحيحة عن الغارة من زعماء عرب الزبير، إذ كان عدد الإخوان قرابة مئة وستين رجلاً ممتطين الجمال، يسيرون باتجاه الشمال منذ أيام، وكانوا من قبيلة العجمان أو إحدى فروعها بقيادة الشيخ ضيدان بن حثلين الذي فُصل عن الزعامة بأمر ابن سعود حاكم نجد والحجاز[٤٤]. عندما بدأ الهجوم بالأمس على رعاة الماشية العراقيين، امتطى نحو أربعين من الغزاة صهوات جيادهم التي يبقونها في الاحتياط حتى اندلاع الاصدام الفعلي، قتل قطاع الطرق البدو قرابة (٢٠) عراقيًّا وحصلوا على خمسمئة حمار وستة آلاف من الماشية، وقد كانت وطأة الهجوم في أراضي نجد والكويت. انسحبوا ليلة البارحة إلى الصحراء وليس هناك مجال لرؤيتهم اليوم عبر كشافي سلاح الجو. وبسبب مضاعفات هذا الهجوم على المستوى الدولي، فمن المتوقع أن يستغل ابن سعود هذه الفرصة لاتخاذ إجراءات قوية ضد هذا الشيخ الخارج عن القانون.

بعد معاينة جسد بيلكرت، أخبرنا الدكتور بوري بأن الطلقة اخترقت عظم الذراع الأيسر على مستوى الكتف لتعبر إلى الحبل الشوكي وتخرج عبر عظم الكتف الأيمن. كان أثر الرصاصة في الستارة اليسرى صغيرًا جدًّا في حين أن الجهة اليمنى ممزقة. وكان بيلكرت ووالدي يجلسان في المقعد الخلفي، وكان والدي قد غيّر مقعده من الجانب الأيسر

(٤٤) ملك المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها (المملكة العربية السعودية).

إلى الأيمن في الزبير. كانت طلقة واحدة من نصف الدزينة الأولى التي أطلقت باتجاهنا قبل أن تعود السيارة وقد عبرت وهي لا تبعد عن والدي سوى بوصة أو بوصتين أمام والدي، ولم تصب الطلقات الأخرى أيًّا من السيارتين.

مسقط ١٢ فبراير، ١٩٢٩م (٣ رمضان ١٣٤٧هـ):

أخذتنا المرحلة الثانية من رحلتنا الشتوية هذه باتجاه شواطئ الخليج العربي، فعلى امتداد شواطئه الشرقية يوجد هناك إقليما فارس ولورستان في دولة الفرس. وعلى الشاطئ المقابل تقع المشيخات شبه المستقلة وهي الكويت، والبحرين، وساحل عمان المتصالح. يكسر رأس مسندم تناسق الشواطئ الغربية للخليج العربي وهو رأس ناتئ يشبه الوتد يفصل الخليج العربي عن بحر عمان. يقع النطاق الضيق التابع لسلطان مسقط أسفل رأس مسندم على طول الساحل، أما ما يحدث في الجزء الداخل من عمان فلا شأن لأحد به.

منذ بدء التاريخ فإن الموقع الجغرافي للخليج جعله مفتوحًا أمام قوى الاحتلال والسيطرة الخارجية. وفي هذا الصدد، يعد الخليج مسرحًا مفتوحًا مثله مثل سهول بلاد ما بين النهرين. على الجانب الآخر من الصحراء العربية الكبرى يقع البحر الأحمر ومصر وكلاهما تمتعان بقدر من الحماية وذلك بسبب وضعهما المحمي. حتى قبل الحرب العظمى، كان الخليج في مجال التأثير السياسي البريطاني وقد ازداد هذا الوضع اليوم وذلك نتيجة لسقوط الإمبراطوريتين الروسية والتركية. ومع ذلك، فقد أصبح الدور الذي كانت هاتان

القوتان تؤديانه سابقًا، بعض الشيء، من نصيب القوميين الفرس من ناحية، والمملكة السعودية من ناحية أخرى[٤٥]. وبحكمة بالغة لم تُعلن بريطانيا العظمى حمايتها لمشيخات الخليج بشكل رسمي على الرغم من أنها - أو بسببها - أنزلت هذه الإمارات بمعاهدات أحادية الجانب تذكرنا بمعاهداتها مع الإمارات الهندية. فرضت هذه المعاهدات واجبات معينة على بريطانيا العظمى مثل صيانة النظام، والقضاء على تهريب السلاح والرقيق. في مقابل هذه الحماية الأبوية، فإن هذه المشيخات ليست حرة في عقد معاهدات أو اتفاقيات مع جهة أخرى دون موافقة الحكومة البريطانية.

قبل أن نغادر البصرة، تحادثنا عدة مرات مع الكولونيل وارد مضيف الكولونيل واتسون، مدير الميناء والمسؤول عن الإضاءة البحرية في الخليج. ويا للغرابة! فإن الخليج لم يُمسح من قبل بشكل صحيح، وهذه المنارات والعوامات الموجودة اليوم تجري المحافظة عليها تحت إدارته، وهي وظيفة صغيرة مثيرة للاهتمام في هذا الركن من العالم، مع تقلباتها الفريدة من نوعها بسبب نقص الاتصالات والظروف غير المستقرة إلى حد ما. مرة كل عام، يقوم الكولونيل وارد بزيارة تفتيشية، ونتيجة لذلك أصبح شخصية مطلعة على سياسات هذه المناطق. بالنسبة إلى وظيفة الحفاظ على المنارات سليمة فإن المنارات الجديدات، حمدًا لله على هذا الاختراع السويسري، تعمل بشكل تلقائي. مسقط الآن بها

(٤٥) ورد في النص: المملكة الوهابية.

واحدة من تلك المنارات، وقبل أيام تم تركيب واحدة منها في شاطئ فارس، ولكن السلطات رفضت دخول مثل هذه الأجهزة للبلاد.

تعد تجارة الخليج من إشراف شركة ملاحة الهند البريطانية البخارية (British India Steam Navigation Company) وهي شركة تابعة للشركة الشهيرة بي و أو (P&O) التي يديرها ويملكها اللورد إنش كاب (Lord Inchscape). كان هناك رحلتان أسبوعيًّا لأعلى الخليج وأسفله وكلاهما للشحن والركاب - البريد السريع والعادي من بومباي إلى البصرة. يمر مركب البريد السريع بكراتشي، ميناء بلوشستان، وبوشهر، ميناء فارس الذي يرتبط بطهران بطريق قوافل ورحلة جوية أسبوعية عبر امتياز جنكر (junker). أما مركب البريد العادي الذي ركبناه بالطبع، يتوقف في نصف دزينة من الموانئ الصغار لأجل التجارة المحلية. تحت هذه البنية الفوقية للتجارة العالمية، ما زالت المراكب الشراعية التقليدية تحتفظ بخطوطها البحرية القديمة للتبادل التجاري حتى في وجود هذه السفن الحديدية البخارية التي تمخر عباب مياهها متجاهلة وجودها. كنت أنا ووالدي مهتمين بمختلف أنواع المراكب المحلية، من حيث أماكن صناعتها، والأهداف التي تستخدم من أجلها، والموانئ الصغيرة الغامضة التي تتوجه إليها، وهي الطريقة نفسها التي نعبر بها نحن، على نحو طبيعي، من ميناء نيويورك إلى شيربورغ[٤٦].

(٤٦) قاعدة بحرية ومدينة تاريخية مهمة في شمال غرب فرنسا. =

هناك قصة مثيرة تسلط الضوء على الجهود التي جرت بعد الحرب لانتزاع احتكار النقل في هذه المنطقة. لنعد إلى الوراء تحديدًا في عام ١٩١٩م، كان على الجيش البريطاني أن يبيع عددًا من قطع النقل التي استخدمت في حملة بلاد ما بين النهرين. وقد كان اللورد هاردنغ (Hardinge)[٤٧] نائب الملك في الهند والجنرال أرنولد ويلسون مسؤولاً عن الأمور في العراق. وحدث أن كان اللورد إنش كاب موجودًا في الهند في ذلك الوقت. أعلنت الحكومة في الهند في أحد الأيام الجميلة عن ذلك الأمر للسيد أرنولد بشكل سري أن المزاد على السفن سيكون في سيملا (Simla) العاصمة الصيفية في جبال الهملايا إذا كان الوقت حارًّا. هذا الاقتراح اتخذ صيغة برقية أرسلت من اللورد هاردنغ إلى السيد أرنولد في بغداد. وبالمناسبة فقد كان الأخير ابن عم السيد جيمي واتسون وهو شخص كفؤ ومميز ويرى خلال الخدعة، وكان رده البرقي إلى نائب الملك واضحًا على نحو مميز "انظر الفصل (٢٧)، المقطع (٢٢) من سفر التكوين" (وهو الآتي: "الصوت هو صوت يعقوب، ولكن اليدين هما يدي عيسو") لم يحدث المزاد في سيملا ولكن في البصرة وهي المكان

= https://en.wikisource.org/wiki/1911-Encyclop%C3%A6dia -Britannica/Cherbourg.

(٤٧) أظن أن جون واهم هنا حيث إن هاردنغ انتهت مهمته عام ١٩١٦م وكان نائب الملك عام ١٩١٩م وهو فريدريك ثيسغر (Frederic Thesiger, 1st Viscount Chelmsford).

https://www.britannica.com/biography/Charles-Hardinge-1st-Baron-Hardinge

المناسب لذلك.

ربما كان السيد أرنولد مع نهاية الحرب هو الشخص الأقدر وصاحب الرؤية البعيدة من بين المسؤولين البريطانيين الشباب في العالم العربي. كان يعرف العربي ولغته وطرقه برؤية استثنائية، على الأقل، هذه شهادة عامة من كل شخص تعامل معه، وهذا الكلام ينطبق على الزعماء العرب، وكذلك مشاعر البريطانيين والأجانب. وهو فعلاً استطاع تحقيق المعجزات مع القبائل العراقية إبان الحرب عندما كان جيش الاحتلال في حاجة ماسة إلى تعاونهم النشط وولائهم في حملة طرد القوات التركية الألمانية. وأنا أراها معجزات لأن وعوده كانت واضحة وجلية وكانت مساعداته غير المحدودة أكثر اعتدالاً من تلك التي أنفقت في حملة لورانس في الحجاز. كان ويلسون لا يقبل حياة المسؤولين الرسميين ولم يوافق على خط سياسة المسؤولين بعد الحرب. ولهذا، فصل من العمل، فانضم إلى شركة الزيت الإنجليزية الفارسية في وطنه. والشكر موصول لأرنولد على كتابه الموسوم "الخليج الفارسي (العربي) (The Perisian Gulf)"، الذي أضفى على رحلتنا، من نواح أخرى، كثيرًا من التشويق والإثارة مما لو كانت دون ظهور هذا الكتاب.

غادرنا البصرة في (٢٦) يناير على متن السفينة إس إس باربيتا (S.S. Barbeta). وكان مضيفنا السيد هوبر والكولونيل وارد على فرضة الميناء ليودعانا، وكذلك كان هنالك فان هيس الذي تمالك نفسه بشكل عظيم خلال الأيام العصيبة

لمأساة بيلكرت. عندما ركبنا شاهدنا أمامنا، ونحن على متن السفينة، طائرة من طراز موث (Moth) يملكها الكونت والكونتسية دي سيبور (De Sibour) اللذان كانا آنذاك في رحلة حول العالم. كان جاك دي سيبور (Jacques De Sipour) طيارًا حربيًّا، وقد ولد في فرنسا وأكمل تعليمه في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد كان جده قنصلاً عامًّا في شارلستون إبان الحرب الأهلية الأمريكية. وبعد الحرب، تزوج فيوليت سيلفريدج في لندن. رقص والدي فرحًا للسيدة وأعلن بلطف، "أنا السيد كرين من شيكاغو ولقد كنت حاضرًا في زواج والدك ووالدتك قبل سنين عديدة". لقد كانت مماثلة لوضع والدي وقالت: "هل تعلم يا سيد كرين أنك أنقذت حياتي وحياة جاك هذا الأسبوع".

هذه هي القصة: ركب دي سيبور طائرته الصغيرة ظهيرة الاثنين الماضي مقتفيًا طائرات سلاح الجو الملكي التي شاهدناها تلاحق الغزاة. ولأنها غادرت بسبب ما أُشيع حول حدوث مشكلة حدودية، فشلت طائرات سلاح الجو الملكي في تحديد موقع العدو علمًا بأنهم غادروا قاعدة الشعيبة قرب الزبير بعد نحو ساعة من إصابة بيلكرت. بالنسبة لدي سيبور، فقد أصيب محركه بعطب بعد أن أصبح فوق أراض معادية، ربما خلف حدود العراق. تمكن دي سيبور من الهبوط اضطراريًّا بشكل جيد، ولحسن الحظ كان في ماكينة الطائرة ما يكفي من وقود ليدرجها ببطء عائدة نحو الزبير، وقد استغرق ذلك سبع ساعات امتدت بين الساعة

الرابعة والحادية عشرة ليلاً، وكان حظه جيدًا إذ إنه لم يلتق بالمجموعة الغازية التي ربما كانت في ذلك الوقت قد عبرت إلى فضاء الصحراء الفسيح، وساقت معها ما أرادته من الأغنام. أنقذ السيد دي سيبور نفسه، وكان برفقته أحد ضباط سلاح الجو الملكي - الساعة الحادية عشرة - بسيارة مصفحة تابعة لفرقة إنقاذ أُرسلت لذلك الغرض. لو نفذت أسرة سيبور بمخططهم بالطيران إلى كراتشي في ذلك اليوم لكانت مشكلة المحرك المتعطل سببت لهم هبوطًا اضطراريًّا في أحد المستنقعات الغادرة على طول الخليج العربي.

بعد أن تركنا البصرة خلفنا، أبحرنا عبر شط العرب لمدة ثلاث ساعات. وهذا هو اسم التقاء نهري دجلة والفرات، ويبدأ من نقطة التقاء هذين النهرين أعلى البصرة ويسيل إلى الخليج العربي على مسافة قدرها نحو (٥٠) ميلاً. ومع أن الملاحة في شط العرب صعبة بسبب الطمي الثقيل، فإن أشجار النخيل المصطفة على ضفتي النهر تضفي مسحة من الجلال والهيبة على المكان. توقفنا بعد الظهر في المحمرة[٤٨]، وهي ميناء فارسي يقع على الضفة اليسرى لشط العرب وهي شهيرة بسبب شيخها الذي كان عونًا

(٤٨) المحمرة: ميناء ومدينة عربية تقع على الضفة الغربية لنهر قارون والجزء الشرقي من شط العرب، وكانت عاصمة الإمارة الكعبية في الأحواز حتى الاحتلال الفارسي عام ١٩٢٤م. غير الإيرانيون اسمها إلى خرمشهر.
https://www.britannica.com/place/Khorramshahr

للبريطانيين حينما احتلوا جنوب فارس خلال الحرب. أما الآن فإن هذا الشيخ الثري كبير في السن ويخضع لمراقبة شرطية في طهران.

تحركنا من المحمرة يصاحبنا آل دي سيبور إلى عبادان وهي مركز التكرير الخاص بشركة الزيت الإنجليزية الفارسية حيث تناولنا الغداء مع السيد غاس (Gas) مساعد المدير المكلف في الموقع. وصف آل سيبور، وهم محقون في ذلك، عبادان بأنها الواحة الحضارية الوحيدة بين القاهرة وبومباي. وهي فعلاً مجتمع هائل ومستقل لديه كل أسس الراحة الحديثة للمشرفين البريطانيين وعائلاتهم. يُضخ الزيت الخام من مسافة مئة وسبعين ميلاً باتجاه الداخل، وحاليًّا يعمل في عبادان عشرون مدرج (Stands) كما يطلقون عليها لتكرير الزيت الخام. ولكن الأحدث منها هما اثنان أو ثلاثة مدرجات فقط، وفيها يجري تكرير الزيت الخام وتحويله إلى غازولين وكيروسين. ولا جدال في أن الشركة (APOC) هي قيد الإعداد مدعومة دعمًا كاملاً من الحكومة البريطانية، مثلها مثل الخطوط الإمبريالية (Imperial Airways).

وعلى الرغم من ذلك، فإن شركة سوكوني[٤٩] يبدو أنها لا تجد أي صعوبة في بيع الكيروسين في هذه الأجزاء بسعر أعلى قليلاً على الرغم من أن منتجات شركة الزيت الإنجليزية الفارسية تتحسن باستمرار. تعد حقول الزيت الخاصة بالشركة جيدة ولكنها ليست الأفضل في العراق

(٤٩) الاسم المختصر لشركة ستاندرد أويل أوف نيويورك.

وفارس. وحتى الآن لم يتم استغلال حقول الموصل وذلك لأنها تنتظر بناء خط الأنابيب إلى البحر المتوسط، وشركة الزيت الإنجليزية الفارسية لديها اهتمام بالغ بهذه الحقول. والفرنسيون لهم مصلحة حقيقية في هذه الحقول، ولكنهم يهتمون أكثر بأن يمر الأنبوب الناقل للزيت وخط السكة الحديد القادم من البصرة إلى البحر المتوسط عبر سوريا الفرنسية. ولكن المثير للانتباه هنا هو أن المسح الوحيد الذي أجري حتى الآن هو ما تم بشأن الخط العابر باتجاه حيفا عبر الأراضي التابعة لبريطانيا بحيث يعبر العراق وشرق الأردن وفلسطين. بالنسبة للحقول الأخرى فهناك شركة زيت خانقين (Kankin Oil Company) وهي شركة تابعة لشركة الزيت الإنجليزية الفارسية التي تمتلك امتيازًا غنيًّا جنوب الموصل وبدأت في استغلاله ببئر واحدة، وأعتقد أن بها أعلى ضغط في العالم (١٩٠٠ رطل للبوصة المكعبة). حصلت شركة البترول التركية[٥٠]، وهي مجموعة دولية تحت السيطرة البريطانية، مؤخرًا على امتياز للاستكشاف وليس للحفر وذلك في منطقة حقول كركوك جنوب الموصل كذلك. ربما أن منطقة شمال العراق وغرب فارس تمتلك أغنى المناطق بالزيت في كل آسيا.

بعد مغادرتنا المحمرة في صباح اليوم التالي، ألقت سفينتنا

(٥٠) هو ما عرف لاحقاً بشركة نفط العراق وتتكون من شراكة شركات بريطانية وهولندية وفرنسية وأمريكية وشريك فردي هو السيد كالوست غولبيكان.

مرساتها في بوشهر ولكننا للأسف لم نصل إلى الشاطئ. وكان بقربنا سلسلة من سفن الشحن اليابانية التي تنتظر تحميل شحنتها من الأفيون لشحنها إلى الشرق الأقصى. ترتبط بوشهر مع طهران بخدمة خطوط الجنكر للطيران التي تعد أرخص من الخطوط الإمبراطورية بمقدار الثلث. وتعد شعبية خطوط الجنكر هي الأولى في فارس ولديهم امتياز حصري فيها. ومع ذلك فلم تكن طائراتهم مريحة على الإطلاق لعدم وجود تنظيم أرضي بالنسبة لحظائر الطائرات وورش الإصلاح. وبالطبع فإن هذا الافتقار إلى هذه المرافق الأرضية يضع مزيدًا من الضغوط على الطيار والميكانيكي.

هناك قنصل بريطاني في بوشهر ويعمل كممثل سياسي في الوقت نفسه، وهذه الوظيفة هي وظيفة قديمة ما زالت باقية منذ أيام شركة الهند الشرقية التي كانت تملك مصنعًا هنا لسنين طويلة. ويقولون إن الحاكم الفارسي رجل متميز يميل إلى التعامل بشكل جيد مع السلطات البريطانية. بينما كانت سمعة المسؤولين الأفندية سيئة في بوشهر وكانوا يعرفون بمناداتهم للركاب من أجل التفتيش في منتصف الليل حتى وإن لم يكن لديهم نية للنزول على أرض الميناء. ونحن سعيدون بأننا لم نلاق ذلك المصير.

في هذه الرحلة لم نتوقف في الكويت ولا في البحرين، والأخيرة هي منفذ لإقليمي الأحساء ونجد التي تقع تحت

حكم ابن سعود[٥١]. كانت التجارة الكبرى لموانئ الخليج العربي في هذا الساحل هي تصدير التمور والجلود واستيراد الأرز والسكر والقهوة والملابس. يوجد مستشفى جيد للإرسالية في البحرين، وبالطبع هناك مقيم سياسي بريطاني. ولكن الشيء الذي تشتهر به البحرين هو أنها مركز للغوص واستخراج اللؤلؤ في الصيف قرب الشواطئ. تغمرك الدهشة بمشاهدة الغواصين وقدرتهم الكبيرة على التحمل وهم من الشيعة العرب[٥٢]. ذلك لأنهم يستطيعون الغوص إلى عمق تسعين قدمًا ويبقون تحت الماء نحو دقيقتين. ويغوصون إلى الأسفل بواسطة حبل ثقيل وغليظ وسلة صغيرة حول العنق يضعون فيها المحار. كل صباح يفتح صيد الأمس، إذ يجلس الغواصون في صفين متقابلين على سطح السفينة في حين أن قبطان المركب الشراعي[٥٣] ينظر إليهم من مؤخرة السفينة. وبسبب أن ليس عليهم ملابس فإنهم لا يستطيعون إخفاء اللؤلؤ. وكلما قلّ الحديث عن بؤس هؤلاء الغواصين وطريقة التعامل معهم كان أفضل، إذ إن هؤلاء المساكين لا

(٥١) لم تكن البحرين منفذًا للأحساء، فقد كان ميناء الأحساء الرئيس في تلك الفترة هو ميناء العقير. كانت البحرين جزيرة قريبة للأحساء، وكان التواصل بين الجزيرة والساحل قويًّا.

(٥٢) هنا قام جون بالتعميم، فلم يكن الغواصون للبحث عن اللؤلؤ من الشيعة العرب فقط، بل كانوا من جميع الطوائف وليس هناك إحصائية دقيقة بهذا الخصوص، كما أن مهنة الغوص مهنة صعبة وهذا هو سبب عدم قدرة الغواصين على الاستمرار وليست طريقة التعامل.

(٥٣) يقصد النوخذة.

يستطيعون مواصلة العمل في هذه المهنة إلا لسنين قليلة.

لم يكن مسموحًا للغواصين حتى أكل المحار. وعندما يجري اكتشاف اللؤلؤة فإنها توضع على أصبع القدم الأكبر للغواص، أما إذا كانت متميزة وكبيرة فإنها تؤخذ مباشرة للقبطان ليفحصها بنفسه. وبعد ذلك يُرمى المحار واللحم والصدفة في البحر إذ إن لديهم اعتقادًا متجددًا وهو أن ذلك يساعد على إعادة التزود من عام إلى عام. وهذا قد يكون صحيحًا، ذلك أن مصائد سيلان تم استنزافها في سنوات قصيرة وذلك بسبب استخدام الآلات الحديثة وشبكات الغواصين، وهذا ما يجعل مصايد الخليج العربي مرة أخرى تكون لها السيادة العليا في مملكة اللؤلؤ.

كانت محطتنا التالية هي دبي التي وصلنا إليها في الليل وهي عاصمة ما يطلق عليه ساحل عمان المتصالح الذي سمي بذلك بسبب الهدن أو المعاهدات التي تم عقدها مع بريطانيا العظمى في القرن الماضي. ولم يُسمح لأي من الركاب بالنزول إلى الشاطئ حتى المسؤولين البريطانيين المكلفين بأعمال تخص الدولة يجدون صعوبة في الحصول على إذن للنزول في دبي. وقد كانت حجة الشيخ المحلي واضحة وصريحة. وقد قال ما خلاصته: "إن شعبي متعصبين جدًّا لدرجة أنه إذا نزل الأوروبيون إلى مملكتي فسأضطر إلى فرض ضريبة من أجل حمايتهم، وهذا يجعل الأمر غير مقبول ومكلف وغير ناجح من جميع وجهات النظر. وذلك لأنه عاجلاً أو آجلاً، ستحدث حادثة وستنزل

القوات البريطانية ثم أخسر وظيفتي (مشيختي). أنا لا أريد الأوربيين ولا السيارات ولا التليغراف؛ لأنها ستكون مصدر مشكلات مستمرة لي ولشعبي".

لم يكن لدى دبي أي تجارة قانونية من الممكن الحديث عنها ما عدا بعض الأفارقة المستعبدين الذين يجري تهريبهم إلى ساحل عمان المتصالح، من وقت لآخر، على الرغم من وجود دوريات رجال البحرية البريطانية في مياه الخليج. يعد هؤلاء المستعبدين من أسباب عدم الاستقرار في البلد، وربما يكونون هم السبب الرئيس في رغبة الشيخ أن لا يحشر الأوربيون أنوفهم في أعماله. تستورد دبي كميات كبيرة من الشاي والسكر حيث تقوم المراكب المحلية بتهريبه إلى فارس بفائدة مجزية. هناك ضريبة استيراد فارسية مقدارها مئة وخمسون بالمئة على هذه الحاجات، وهي مصدر دخل تم استغلاله في زمن نظام ميليسباغ[٥٤] (Millspaugh) في طهران والذي لا يمكن التراجع عنه بسبب أنه خصص لدفعات الدين الخارجي.

وعودة إلى الجانب الآخر من الخليج، رمينا المرساة لمدة ساعتين في هنجام، وهي جزيرة تستخدمها البحرية البريطانية كقاعدة لعملياتها ودورياتها. وبعدها أتى نداء الليل

(٥٤) آرثر ميليسباغ: مستشار مالي في وزارة الخارجية الأمريكية وتمت إعارته إلى إيران في الفترة بين عامي ١٩٢٢-١٩٢٧م و١٩٤٢-١٩٤٥م ليكون المدير العام للمالية في فارس.
Arthur C. Millspaugh, *Americans in Persia*, the Brookings Institution, Washington, 1946, iv.

وهذه المرة كان في بندر عباس وهو ميناء جنوب فارس، وقد سمي على الملك الفارسي العظيم. بعد أن غادرنا بندر عباس، مررنا بجزيرة هرمز وهي المكان الذي سيطر من خلاله البرتغاليون على طرق التجارة وسياسة الخليج العربي لمدة قرن من قدوم ألبوكيرك. تجاوزنا رأس مسندم على يميننا مغادرين الخليج العربي، وداخلين إلى خليج عمان. بعد ذلك بقليل وصلنا إلى ميناء الصيد الصغير جاسك (Jask) في الركن الجنوبي الغربي من مكران في فارس. كان بها مكتب لشركة التليغراف الهندية الأوربية (Indo-European Telegraph Company) يُدار، مثله مثل كل المحطات التي مررنا بها في الطريق، بواسطة الإنجليز الهنود، وهو الاسم الرسمي الجديد الذي يُطلق على البريطانيين المولودين في الهند. تخدم شركة الهندو أوربية كل هذه المنطقة من العالم وهي الخط الرئيس بين إنجلترا والهند.

بعد ستة أيام من خروجنا من البصرة، وصلت العزيزة باربيتا إلى الخليج الصغير لمسقط المدينة الظريفة ذات الأبنية المسطحة التي تمتد إلى تلال ساحل عمان الجرداء الوعرة. نزلنا هنا من السفينة لنقضي أسبوعًا أو ما يقاربه مع المقيم السياسي والقنصل البريطاني الميجور ميرفي والسيد برترام توماس المستشار المالي للسلطان، ولكن الشخص الرئيس الذي أردنا رؤيته في مسقط هو صديقنا القديم المنصر الأمريكي الدكتور بول هاريسون.

على الرغم من أن لدى مسقط تاريخ رومانسي طويل، فإن

ميناءها الصغير لم يحتل الصدارة أبدًا سوى لسنوات محددة وعلى فترات متقطعة. ترك باني الإمبراطورية البرتغالية دوق ألبوكيرك مسقط واختار جزيرة هرمز التي تقع بين خليج رأس مسندم وبندر عباس لكي يكون مسيطرًا على مدخل الخليج. بعدما استطاع الفرس إخراج البرتغاليين من هرمز، أبقى الأخيرون على مسقط في قبضتهم كقاعدة لإعادة الاحتلال إذ بدؤوا بتشييد عدة حصون في زمن الأرمادا (١٥٨٨م/٩٩٦هـ). ومنظر هذه القلاع البرتغالية حاليًّا جميل إذ تحيط بالميناء الضيق من الجهتين.

منذ طرد البرتغاليين قبل ثلاثة قرون مضت، مرت مسقط بفترات متغيرة. كانت مسقط حتى منتصف القرن الماضي مركزًا مزدهرًا لتجارة السلاح والرقيق. يتقلص دورها أحيانًا، ويتوسع أحيانًا أخرى لسنوات قصيرة، وقد هيمنت على موانئ متعددة بين بندر عباس وساحل مكران في بلوشستان. إن ضعف مسقط كان بسبب أن الإمارة الضعيفة مفتوحة للهجمات القادمة من القبائل المزعجة من داخل عمان. في أوائل القرن الماضي، وصلت مسقط إلى قمة مجدها تحت حكم السلطان سيد سعيد[٥٥]. وعند وفاته عام ١٨٥٦م (١٢٧٢هـ)، انقسمت السلطنة بين ابنيه حيث حصل أحدهم

(٥٥) هو السلطان سعيد بن سلطان بن أحمد حاكم مسقط وعمان (١٢١٩-١٢٧٣هـ/١٨٠٤-١٨٥٦م) ولد عام ١٢٠٤هـ، وتولى بعد مقتل عمه بدر بن أحمد، عقد معاهدات تجارية مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ويعد من أشهر سلاطين الدولة البوسعيدية. الزركلي، **الأعلام**، ٩٥/٣.

على زنجبار والآخر سيطر على مسقط مع مشيختين أو ثلاث من مشيخاتها على ساحل مكران.

وضعت بريطانيا في العام ١٨٦١م (١٢٧٧هـ) ممثلاً سياسيًّا لها في مسقط وهو الذي تم سحبه مؤقتًا خلال فترة حكم السلطان سيد سعيد المميزة. خلال العقود الثلاثة اللاحقة، حدث نزاع بين بريطانيا وفرنسا على أوضاع الخليج العربي ولا سيما مسألة تهريب السلاح. هنا رأت بريطانيا أن مصالحها الحيوية في خطر كبير لأن البنادق المهربة تصل إلى فارس وأفغانستان بكميات كبيرة. وبعد عدة حوادث عنيفة، نجحت بريطانيا خطوة بخطوة في عقد معاهدات حصرية مع مسقط ومشيخات الخليج العربي الأخرى، وهذا النظام وضع حدًّا لتجارة السلاح والرقيق. ومن أجل تعويض تنازل السلطان عن حقوقه في زنجبار، حصل على مبلغ قدره نحو خمسين ألف دولار في العام دعمًا من الحكومة البريطانية. وفي المقابل، تعهدت بريطانيا بحماية الأسرة الحاكمة في مسقط من الهجمات من الداخل.

كان آخر هجوم من قبل قبائل عمان في عام ١٩٢٣م (١٣٤١هـ) إذ حوصرت مسقط عدة أيام. وقد قُضي على هذا التمرد بمساعدة الجنود البريطانيين الذين قدموا من الهند، وحتى اليوم لم يستطع سلطان مسقط مد نفوذه في الداخل لوجود شيخ منافس له. ولهذا ولأسباب منطقية، فإن سلطنة عمان تعني المنطقة الساحلية من رأس مسندم حتى صور وخلفها قليلاً على بحر العرب. وأخيرًا، اليوم لا يوجد

جنود بريطانيون في مسقط ولكن الكابتن والكر من الجيش الهندي مسؤول عن الجنود المشاة الذين يصل عددهم إلى مئتي رجل، وجيش مسقط حاليًّا يعمل لتمهيد الطرق.

لدى مسقط حاليًّا مصدر واحد للدخل فقط، وهو ضرائب الاستيراد والتصدير وقدرها خمسة بالمئة كما نصت عليه الاتفاقيات مع بريطانيا وفرنسا وأمريكا. وبالمناسبة، فقبل نحو نصف قرن حتى نحن (أمريكا) كان لدينا قنصل في مسقط. كان السلطان يحتاج إلى البريطانيين في أمرين. بعد الحرب كانت مالية الدولة في فوضى عارمة، وذلك بسبب التقاليد الإسلامية التي تعطي الحق لأي شخص من الأسرة الحاكمة في الحصول على دعم الخزينة. أيضًا، كانت السفن المسلحة البريطانية مفيدة في حماية الحدود الضيقة بين الساحل والداخل. والآن لدى السلطان مستشار مالي وهو السيد برترام توماس الذي يعد حجة "متميزة" رائعة في هذا الركن من الجزيرة العربية.

تحمل تجارة مسقط صفة البساطة. كانت التمور والأسماك المجففة من أهم السلع المصدرة، والأخيرة تستخدم بشكل كبير كسماد في مزارع الشاي في سيلان، وتؤكل بكميات كبيرة في الهند. كذلك تقوم مسقط بتصدير العمائم الملونة إلى زنجبار وهو أمر لافت للنظر من بقايا العلاقات السابقة. في حين أن أهم السلع المستوردة هي في المجمل الشاي والقهوة والسكر والملابس والأرز. بأدنى درجات البساطة، تبادل مسقط التمر بالأرز مع العالم الخارجي. وقد اكتشفت

بالصدفة بأن سعر الخمر (الويسكي) أرخص في مسقط من أي مكان آخر وذلك بسبب الضريبة الضئيلة لاستيراده.

سكان ساحل مسقط خليط لا يمكن وصفه. فهناك الرقيق الأفارقة من كل الأنواع وقد كانوا، ولمئات السنين، يتزاوجون مع العمانيين العرب وبقايا عناصر غير سامية تسكن هذه الجهات. ويسيطر التجار البلوش على كل أنواع التجارة في المدن، وكثير منهم يعود أصله إلى الرقيق الذين كانوا يباعون عند أي تغيير في السلطة "في ديارهم". كان مقرضو الأموال وأصحاب متاجر الخضار – وهي تجارة واحدة تحت سقف واحد كحال اليهود في شرق أوروبا – تعود كاملةً إلى هنود من طبقة البانيان[٥٦] (Banyan) الذين اشتهروا بهذه الأعمال في الشرق الأوسط. وأخيرًا، كانت تجارة السمك المجفف تحتكرها جماعة الخوجا[٥٧] وهم أتباع المذهب الفارسي تحت زعامة آغا خان في بومباي.

---

(٥٦) إحدى الطبقات التجارية في الهند اقترن تاريخها بالتجارة الخارجية، قدمت من الهند واستقرت في مسقط وسيطرت على تجارتها الخارجية.

Yusuf al-Ghailany, *Sayyid Turki B. Said : attempts and challenges in ruling Oman 1871–1888*, Edunbrough: University of Edunbrough, 1998, p. 16.

(٥٧) وهو مصطلح أطلق على التجار المسلمين القادمين من الهند وتحديدًا من حيدر آباد والسند وقد استقروا في مسقط وأسسوا منطقة خاصة بهم في مطرح وعملوا وسطاء تجاريين بين الساحل والداخل في عمان. سالم عبد علي العريض، **الأحكام الإسلامية وتطبيقاتها العملية في الهند البريطانية والخليج العربي**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص٣٠٤.

قدم أتباع الخوجا في الأصل مثلهم مثل البارسيون[٥٨] (Parsees) الذين يقطنون بومباي، من بلاد فارس، وآغا خان هو لقب حاكم إقليم فارسي قبل ثلاثة قرون، أنشأ منظمة إرهابية سرية متأثرة بشكل كبير ببرنامج الماسونية لمحاربة الدين الإسلامي المنظم. وبعد أن حصلت على وضع قوي في المشرق، تم إخراج زعماء الخوجا من فارس فذهب معظمهم إلى بومباي. والمثير للدهشة أن حركة تركيا الفتاة (the Young Turks) تأثرت بشكل كبير بهذه الحركة حتى إنه يقال بأن كمال باشا انتمى في أحد الأيام إلى هذه الطائفة.

لنعد إلى بقائنا في مسقط، قمنا بزيارتين وديتين للسلطان سعيد بن فيصل[٥٩]. وقد أخبرنا بأنه معجب بزيارته العام الماضي إلى لندن، وقد أوصل إلينا الشعور بالرغبة في الدخول في أحاديث ودية دون الخوض في سياسة بلاده. كان فرحًا بزيارة والدي إلى بلاده وقد اغتنمنا فرصة عرضه ليخته من أجل الإبحار على طول الساحل، فقمنا بزيار الخابورة وهي قرية للصيد ومركز للتجارة. كان مرافقنا في الزيارة والي المكان وكان معنا الشيخ محمود وهو أكفأ أبناء عم السلطان. كان محمود ذا شخصية جذابة ويتحدث الإنجليزية

(٥٨) هم جماعة الزرادشتيين الذين هاجروا إلى الهند بعد الفتح الإسلامي لفارس. تقطن هذه الجماعة العرقية في بومباي بشكل خاص وغيرها من المدن الهندية. بعد وصول الإنجليز إلى الهند، تعاون معهم البارسيون خاصة في مجال التجارة.
https://www.britannica.com/topic/Parsi

(٥٩) كان السلطان في تلك الفترة تيمور بن فيصل وابنه هو سعيد.

بشكل جيد وكان مسؤولاً عن بعض التحسينات العامة قرب مسقط وفيها. وقد أخبرنا أمرًا أخبرنا به عن والي الخابورة يبين الديموقراطية الاجتماعية المطلقة في العالم العربي. كان والد الأخير عبدًا إفريقيًّا ذا سلطة كبيرة وارتقى في المناصب حتى أصبح قائدًا للجيش في زمن الاضطرابات التي عاشتها مسقط قبل جيل مضى. كان لون الوالي أسود خالصًا وشعره مجعد.

الخابورة قرية صغيرة تقع على الساحل وتبعد نحو ثمانين ميلاً إلى الشمال من مسقط، وهي مركز لتجارة القوافل مع الداخل. وسكانها كما يمكن لك أن تتخيلهم، أكثر عروبة في أسلافهم من سكان مسقط. وقد تم بناء البلدة على الشاطئ بأكواخ مبنية من سعف النخيل. الأركان الأربعة للكوخ مثبتة بجذوع النخيل وكان السقف مدببًا. استقبلنا استقبالاً ملكيًّا من الجيش وكانوا كلهم من البدو الأقوياء مفتولي العضلات الأوفياء للصديق الأشداء على العدو. ومن دون إبطاء شاركناهم ضيافتهم التي كانت القهوة (دون سكر) والحلوى. وقد تمكنا في ساعتين من التسكع في أرجاء المدينة والسوق ذي الرائحة النتنة. وبعدها تمت ضيافتنا بقهوة وحلوى وشاي ممزوج بالحليب. كان مضيفنا هذه المرة شيخ واحة قريبة ذهب في العام الماضي للسلام على الزعيم العربي العظيم، ابن سعود. وقد أخبرنا عن زيارته للرياض وأنه أخذ معه خمس نياق عمانيات سريعات لإهدائها للزعيم العظيم. وفي المقابل، أعطاه ابن سعود عددًا من البنادق وبعض دولارات ماريا تيريزا (الفرانسي).

إنه مما يدفع للفضول أن ترى هذه العملة الفضية النمساوية القديمة يتم تداولها في كل الأجزاء من هذه المنطقة حتى في الحبشة واليمن. وكلها تحمل عليها التاريخ ١٧٨٠م (١١٩٤هـ) حتى تلك التي يتم سكها في فيينا هذه الأيام. وهذا يذكرني بأصل تسميته عملتنا. في أحد الأماكن في جبال الألب يوجد وادٍ يطلق عليه اسم روزنثال (Rosenthal). قبل عدة قرون، قام دوق بسك عملة خاصة به هناك وعرفت هذه العملة باسم روزنثالر (Rosenthaler). وسرعان ما أُسقط الجزء الأول "روزن" وأخذنا الاسم الذي أخذه الإسبان من الجزء النمساوي الخاص بمملكة الهابسبورغ وانتشر في العالم باسم الدولار (Dollar) أو تايل (Tael).

عدنا إلى مسقط مرة أخرى وأجرينا حوارين يستحقان الإشارة إليهما. الأول: كان مع الخان صاحب نسيب وهو زعيم التجار البلوش ومتعهد بحري، وقد مُنح لقب خان من قبل الحكومة الهندية. استطاع نسيب خان جمع ثروة ضخمة استفاد منها في أعمال الخير ودعم الدعاة الذين يعتمدون على دعمه المالي وهو مقرض دائم لخزينة السلطان عندما يكون صندوق السلطان خاليًا. كان نسيب خان متعهدًا لعمليات الأخير المستمرة ولا يمكن عدها خدمة، بل إنه لا يحصل على سنت واحد في المقابل وكذلك هو لا يستطيع الحصول على فائدة لأنها محرمة في الشرع الإسلامي. ولكن في الشرق هناك عدة طرق للالتفاف على القوانين السخيفة[٦٠]. وفي

(٦٠) ما ذكره الباحث من وصف القوانين بالسخيفة ينم عن جهل بتعاليم الإسلام وأنظمته ولا يسلم له في ذلك.

هذه الحالة، الاستفادة كانت تأتي من الفواتير الخاصة بغذاء السلطان. بعد وصوله إلى مسقط، اكتشف برترام توماس سريعًا بأنه يتم حساب أموال ضخمة على المؤن الخاصة بالسلطان، ولكنه عندما اكتشف ذلك، طُلب منه عدم الخوض في هذا الموضوع سواء بشكل رسمي أو غيره. كان العجوز نسيب لطيفًا جدًّا معنا، إذ أغدق علينا بأسلوب الكرم الشرقي الهدايا، فأعطى والدي قهوة يمنية، واستضافنا في جلسة مسائية تخللتها أغان شعبية من بلاده الأصيلة.

قمنا برحلة جميلة أخرى بصحبة والي مطرح الذي كان في خدمة السلطان منذ نحو أربعين عامًا. وهو رجل حضري وسيم وشريف عربي ذو لحية بيضاء متطايرة وهو الرجل الأهم في مسقط حاليًّا. وهو رجل صارم ومنجز في أعماله. عندما كنا نحتسي القهوة ونأكل الحلوى والفاكهة معه، النساء اللاتي معنا في المجموعة ذهبن لزيارة زوجته الجديدة ذات الخمسة عشر عامًا. وقد توفيت كل زوجاته السابقات كما هو مصير كل أبنائه ولهذا تزوج قريبًا.

مسقط ومطرح بلدتان ساحليتان تبعدان بعضهما عن بعض بمسافة ميلين فقط، ولكنهما مفصولتان بسلسلة من التلال الصخرية الوعرة، والطريق الذي يمكن الوصول عبره من إحدى هاتين البلدتين إلى الأخرى هو عبر مسار يقطع بالأقدام أو عبر قارب من هذا الخليج إلى الآخر. كان حاجز الحماية هذا مفيدًا في القديم، أما هذه الأيام فمن الواضح أن وسائل الاتصالات السريعة تعد عاملاً مهمًّا للرفاهية وحتى

لحماية السلطنة. كان المندوب السياسي الميجور ميرفي هو من بدأ مخطط بناء طريق بين المدينتين التوأم، ومن ثم مده على الشاطئ إلى الخابورة وما بعدها، وهذا هو السبب الذي جعل الكابتن والكر وجيشه يفجرون لعمل طريق على طول الساحل ويضعون علامات الطريق الجديد على ذلك الممر الضيق القديم. سينتهي من أعمال الطريق الرابط بين مسقط ومطرح العام المقبل وهو إنجاز عظيم، وحاليًّا هناك عشرة أميال من الطريق تم تمهيدها على طول الساحل وباتت الآن مستخدمة. ويقوم تجار مسقط وعلى رأسهم نسيب خان بالتخطيط لإدخال خدمة التاكسي على طول الشاطئ عندما ينتهي من أعمال الطريق. سيرسل والدي سيارة فورد جديدة للسلطان في مقابل هدية السلطان التي كانت عبارة عن قارب صغير يطلقون عليه اسم الهوري لاستخدامه في وودز هول (Woods Hole).

بشكل عام، أكثر الأشخاص إثارة في مسقط هو الدكتور بول هاريسون، وهو زميل فان هيس ومؤلف لكتاب رائع هو "العرب في ديارهم"[٦١] (The Arab At Home). إلى جانب أمور كثيرة يتميز بها الدكتور هاريسون، فإنه أفضل جراح في المنطقة حتى القاهرة. افتتح هاريسون العام الماضي مستشفى صغيرًا في مطرح بعد مدة عمل مع العرب دامت نحو عشرين عامًا على طول ساحل الخليج العربي وبخاصة في البحرين مع زيارات متقطعة إلى إقليمي الأحساء ونجد. كانت

(٦١) طبعت دارة الملك عبدالعزيز هذا الكتاب.

الخدمة الكبيرة التي قدمتها البعثات التنصيرية في المنطقة هي الخدمات الصحية والتعليمية، وكان السيد هاريسون من ضمن أوائل الذين أدركوا ما تواجه برامج التنصير من قيود. وبالطبع فإن العرب، من وجهة نظرنا، هم أمة جاهلة[٦٢]، وأن حدوث الأمراض أمر شائع في الشرق بأكمله. وهذا النوع من العمل هو الأفضل لكسب ثقة العرب واحترامهم ولا يثير شكوكهم، فبفضل جهود البعثات التنصيرية هذه افتتح السلطان المدرسة الحكومية الأولى في مسقط العام الماضي.

لقد عرفنا السبب الرئيس لاعتذار ابن سعود اللطيف من طلب والدي زيارة الواحة الجميلة الحسا، وهي منطقة داخلية تبعد عن البحرين نحو خمسين ميلاً وذلك عن طريق الدكتور هاريسون. لقد كان هناك بعض المشكلات التي حدثت قريبًا في إقليم الأحساء على الرغم من أن الإقليم يحكم من قبل أفضل قادة ابن سعود، وهو ابن جلوي الذي يحكم الأحساء منذ طرد الترك منها قبيل الحرب العالمية الأولى. وحاليًّا معظم سكان الأحساء من الشيعة[٦٣]، وكما تعرف فإن ابن سعود يحكم الوهابيين الذي ينظرون إلى الشيعة على أنهم هراطقة[٦٤]. عاشت الأحساء حكمًا متسامحًا حتى قبيل عام

(٦٢) هذا غير دقيق ولا يسلم للباحث في وصفه للعرب بأنهم أمة جاهلة، إذ إن الحضارة الأوروبية قائمة على ما أنتجته الحضارة الإسلامية والعربية، أما ما كان خلال تلك الفترة فقد كان نتيجة للاستعمار الأوروبي والعثماني للمنطقة العربية.

(٦٣) هذا غير دقيق، فليس غالبية سكان الأحساء من الشيعة.

(٦٤) الموقف السني من عقيدة الشيعة واضح وليس مقصورًا على السعوديين فقط.

واحد أو عامين، ولكن ابن سعود بدأ يفقد سيطرته على القبائل الصحراوية، وكان عليه أن يتكئ أكثر وأكثر على المدنيين العرب في الواحات من التجار الذين لهم علاقة بالعالم الخارجي. تمثل انتقادات البدو [٦٥] لابن سعود منحىً خفيًّا وقويًّا من عدم الثقة حيال استخدامه للسيارات والراديو والاختراعات الحديثة الأخرى. بعد مؤتمرات تم عقدها قريبًا مع زعماء تلك القبائل - كان آخرها في الرياض قبل شهر مضى - اضطر ابن سعود إلى تنحية التسامح الديني في الأحساء وغيرها من الأماكن الأخرى[٦٦]، وذلك من أجل أن يحتفظ بالمخترعات الحديثة في مملكته التي تمتد من طرف الجزيرة العربية إلى طرفها الآخر. وقد كانت النتيجة أن أُغلقت مساجد الشيعة في كل مكان[٦٧]، وأصبح على الشيعي الراغب في الصلاة أن يصلي في بيته أو في مساجد السنة. بناءً على ما ذكره الدكتور هاريسون الذي كان هناك العام الماضي، فإن ابن جلوي لم يكن متشددًا في تطبيق هذا النظام، ولكن يبقى الوضع حساسًا لدرجة تجعل ابن سعود لا يرغب في استقبال أي زائر أجنبي لأقاليم الساحل الشرقي في هذه الأيام.

(٦٥) لم يكن كل البدو ينتقدون الملك عبد العزيز فقد كانت فئة منهم، وقد استطاع الملك عبدالعزيز بحكمته ودهائه إقناعهم بأساليب متعددة.

(٦٦) لم يرد ضمن البنود التي تمت مناقشتها في مؤتمر الرياض الحديث عن هذا الأمر، وأرى أن كرين لم يكن دقيقًا في حديثه.

(٦٧) لم أجد أحدًا من الكتاب السعوديين أو الأجانب ذكر شيئًا عن إغلاق مساجد الشيعة، وأظنها إحدى شائعات ذلك العصر لتشويه الحكم السعودي.

في الوقت الذي أعمل فيه لإنهاء هذه السطور في شرفة بيت السيد ميرفي على الواجهة البحرية، أرى سفينة إس إس بارغورا (S.S Barjora) تبحر تجاهنا، إذ رأيت أولاً عمودًا من الدخان في الأفق الأزرق ثم هيكل السفينة الحديدي الأسود. كان بقاؤنا في مسقط - اثني عشر يومًا كاملة - رائعًا ومثيرًا، إذ إن بارغورا متأخرة ليومين عن جدولها. لقد نسيت أن أخبرك بأن السيدة مورفي مولودة في مدينة غلوسشتر (Gloucester) من ولاية ماساتشوستس، وقد التقت بزوجها في الريفيرا قبل خمس سنوات في إجازته الوحيدة من خدمته في الهند منذ ما قبل الحرب. وقد وعدت بزيارتنا في وودز هول يومًا ما، لترى الهوري الصغير الذي أمر السلطان بنقله إلى بارغورا عند وصولها إلى الميناء.

الخاتمة:

في الختام، أعطت هذه الرسائل لمحة موجزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعراق ودول الخليج العربي خلال فترة العشرينات الميلادية من القرن العشرين. كما أنها بينت وجهة نظر أحد الزوار الأمريكيين عن المنطقة التي تعد جديدة بالنسبة لهم حيث تعد هذه الفترة بداية قدوم الأمريكيين بشكل ملحوظ خاصة مع بدء عمل الشركات النفطية في العراق ودول الخليج العربي. وقد تطرق الكاتب إلى مواقف طريفة وأحداث دراماتيكية ولقاءات مثيرة ونقاشات حادة حدثت خلال هذه الرحلة الشهيرة. تعد هذه الرسائل مصدرًا لشاهد عيان زار المنطقة وأعطى تحليلات وتفسيرات الرجل الغربي لمنطقة لم يزرها من قبل ولا يعرف عن عاداتها وتقاليدها وتاريخها إلا القليل. بعض الآراء التي أدلها بها كانت دقيقة إلى حد ما ولكن البعض الآخر لم يكن دقيقا وهذا يعود لعدة اعتبارات منها عدم العلم وأسلوب التفكير كونه عاش في منطقة مختلفة كليًا عن المنطقة التي زارها وكذلك اعتماده إلى معلومات غير صحيحة وصلته عبر أطراف أخرى. سلطت هذا الرسائل الضوء على موضوعات جديدة نوعا ما سواء خلال رحلة الطيران من مصر إلى بغداد وحديثه عن الخندق الذي تم حفره بين الأردن والفرات لتهتدي به الطائرات والصهاريج الموجودة في الصحراء والقواعد العسكرية البريطانية والزيارات للمواقع التاريخية والدينية ورحلة السيد دي سيبور

حول العالم والمغامرات في ساحل الخليج العربي. هذه الرسائل مصدر مهم لأحداث المنطقة خلال تلك الفترة وهو ما جعلني أعقد العزم على ترجمتها ليستفيد منها القارئ والباحث في تاريخ المنطقة.